المجلة العربية للعلوم الانسانية ـ العدد الثاني ـ المجلد الاول ص ص (٥٧ ـ ٩٧)

من أخبار المدن الاسلامية المندثرة تنيس

عطية القوصي
جامعة الكويت

ملخص

زودت دراسة مدننا الاسلامية تاريخنا الاسلامي بمعلومات هامة شكلت جزءاً عزيزاً من تراثنا القومي. وان كشف النقاب عن أخبار مدننا الاسلامية المندثرة سوف يزودنا بمعلومات جديدة هائلة تسد النقص الموجود في هذا التراث. ومدينة تنيس، الغارقة الآن تحت مياه بحيرة المنزلة جنوب شرقي البحر المتوسط، والتي نتعرض لأخبارها في بحثنا هذا بعد أن غصنا معها في تاريخها، هي واحدة من المدن الاسلامية التي يشكل تاريخها جزءاً هاماً من هذا التراث.

ولقد استقينا معلوماتنا التاريخية والجغرافية والأثرية عن هذه المدينة من مصادرها الصحيحة، تلك المصادر التي أجمعت عن الدور الهام السياسي والحضاري الذي لعبته هذه المدينة منذ الفتح الاسلامي لمصر حتى لاقت مصيرها في العصر الأيوبي. وكان ازدهار تنيس في العصر الفاطمي بسبب تخصص سكانها في صناعة أرقى المنسوجات الكتانية التي كانت لها شهرتها الفائقة في الأسواق العالمية لعالم العصور الوسطى. ولقد انعكس هذا الرواج الاقتصادي على حياة سكانها في القرنين الرابع والخامس الهجريين، كما انعكس على المدينة ذاتها حيث زاد عمرانها وغمرت الخيرات أسواقها وازدادت مرافقها العامة ومؤسساتها التجارية والعلمية. وخرجت المدينة علماء أفاضل ومحدثين وقضاة وأدباء ما زالت سيرتهم تُزين كتب الأدب والتاريخ الاسلامي.

وجاء تدهور أحوال تنيس منذ أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس، بسبب تقلص انتاجها من النسيج نتيجة لأحوال مصر الفاطمية السيئة عموماً في

وفي سنة ٥٨٨ هـ أمر السلطان صلاح الدين الايوبي، مضطراً، باخلاء تنيس من أهلها بسبب ازدياد هجمات الصليبيين عليها، وكان اخلاء المدن أمام هجوم الأعداء سياسة عسكرية دفاعية سار عليها حكام الأيوبيين، وتُجمع المصادر على أن السلطان الملك الكامل، سادس حكام الأيوبيين، هو الذي أمر بهدم مدينة تنيس وتخريبها في شهر شوال من سنة ٦٢٤ هـ. ورغم اندثار المدينة الا أن تاريخها العظيم ودورها الحضاري الهام سيظل دوماً يتنفس من تحت الماء.

ذلك الوقت، ونتيجة تعرضها المستمر لخطر الهجوم الصليبي الذي تعرضت له مصر الاسلامية آنذاك.

تنيس مدينة من مدن مصر المندرسة، كانت تقع ما بين مدينتي الفرما شرقاً ودمياط غرباً. شمال شرقي بحيرة المنزلة الحالية التي كانت تُعرف قديماً ببحيرة تنيس[١]. جاءت أهمية هذه المدينة من أنها كانت من أهم ثغور مصر الاسلامية الشمالية ومن أكبر قواعد أسطولها المجابه لحدود الدولة البيزنطية[٢]. هذا فضلا عن شهرتها كأهم مركز من مراكز صناعة النسيج الرفيع المستوى الذي حمل اسمها وذاعت شهرته في عالم العصور الوسطى كله ولم تصل الى جودة انتاجها منه أي مدينة أخرى[٣].

ولقد تحدثت كتب الجغرافيين والمؤرخين والرحالة المسلمين عن مكانة هذه المدينة الهامة وذيوع صيتها في العالم الاسلامي خلال القرون الستة الأولى للهجرة، منذ الفتح الاسلامي لمصر وحتى العهد الثاني من حكم الفاطميين لها. وتحدثوا أيضاً عن النهاية المأساوية التي انتهت اليها هذه المدينة والمصير التعيس الذي انتهت اليه تنيس في العهد الأيوبي بسبب تدهور أحوال صناعتها وتعرضها لهجوم صليبي متتابع دعا حكام الأيوبيين الى تدميرها وترحيل سكانها عنها، فواجهت الخراب والتدمير وغدت أثراً بعد عين بعد أن كانت ملء سمع الدنيا كلها وبصرها.

تنيس مدينتان:

ولقد اتفق الجغرافيون والمؤرخون المسلمون (ابن حوقل، ١٩٣٨ صفحة ١٤٦،

المسعودي ، ١٩٣٨ ، جـ١ : ٣٨٤ ، ياقوت الحموي ، ١٩٥٦ ، المجلد الثاني : ٥٢ ، ابن دقماق ، ١٨٩٣ ، جـ١ : ٧٩٠ ، المقريزي ، ١٢٧٠ هـ ، جـ١ : ١٧٦) فيماأوردوه في مصادرهم على أن تنيس ، في الأصل ، مدينتان وليست مدينة واحدة : الأولى قديمة موغلة في القدم والثانية حديثة جاء ميلادها الزمني قبل الفتح الاسلامي لمصر بمائة عام . كذلك اتفقوا على أن تنيساً الأولى كانت مدينة واسعة للغاية تشغل مساحتها كل الأرض التي تحتلها الآن بحيرة المنزلة الحالية[٤] ، التي كانت تُعرف باسم بحيرة تنيس قبل أن تغرقها مياه البحر المتوسط[٥] . كما أضافوا أن أرضها كانت أخصب أرض مصر وأن تربتها كانت أجود تربها (القزويني ، ١٩٦٠ : ١٧٦ ، القلقشندي ، ١٩١٥ ، جـ٣ : ٣٨٣ ، النويري ، ١٩٢٣ ، جـ١ : ٢٥٢) . أما المدينة الثانية فذكروا أنها كانت واحدة من مجموعة الجزر التي تكوّنت في البحيرة ونجت من الغرق بسبب ارتفاع أرضها ، وهي جزر تنيس وشطا ودميرة ودبيق وتونة (ابن حوقل ، ١٩٣٨ : ١٤٦ ، أبو الفداء : ١١٩) .

يقول المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) في كتابه مروج الذهب (جـ١ : ٣٨٤ ، ٣٨٥) : « سأل ابن طولون رجل علامة من أهل مصر كان على معرفة تامة بتاريخها القديم عن بحيرة تنيس ودمياط فقال : كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وثراوة وكانت جناناً وكرماً وشجراً ومزارع . وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض وقرى على قرارها ولم ير الناس بلداً كان أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالاً من جنانها وكرومها . ولم يكن بمصر كورة يقال أنها تشبهها الا الفيوم ، وكانت أكثر خيراً من الفيوم وأخصب وأكثر فاكهة ورياحين من الأصناف الغريبة . وكان الماء منحدراً اليها لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاء يسقون منه جناتهم إذا شاءوا وكذلك زروعهم ، وسائره يصب الى البحر من سائر خلجانه ومن الموضع المعروف بالأشتوم . وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض نحو مسيرة يوم . وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوكة الى قبرس تسكله الدواب يبساً ، ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس الا مخاضة . وجزيرة قبرس اليوم بينها وبين العريش في البحر سير طويل وكذلك فيما بينها وبين أرض الروم . فلما مضت لدقيلطيانوس (يقصد الامبراطور البيزنطي دقلديانوس الذي حكم ما بين أعوام ٢٨٤ - ٣٠٥ م) من ملكه

مائتان واحدى وخمسون سنة هجم الماء على البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم ببحيرة تنيس فأغرقه وصار يزيد في كل عام حتى غرقها بأجمعها فما كان من القرى التي في قرارها غرق واما التي كانت على ارتفاع من الأرض فبقيت، وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها وذلك قبل فتح مصر بمائة سنة».

ويقول المقريزي (خطط المقريزي، جـ١ : ٣٨٤ - ٣٨٥) عن تنيس الأولى[٦]: «يُقال بناها قليمون من ولد أتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط في القديم. وفي أيامه بُنيت تنيس الأولى التي غرقها البحر وكان بينه وبينها شيء كثير وحولها الزرع والشجر... ويُقال ان الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز اذ يقول: (واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) كانتا لأخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموقع فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه»[٧].

وتقع مدينة تنيس الثانية على جزيرة شبه مستطيلة. وذكر ابن بسام المحتسب وهو من أبناء تنيس[٨]، أن طول المدينة من الشمال الى الجنوب يبلغ ٣٢٢٧ ذراعاً وان عرضها من الشرق الى الغرب يبلغ ٣٥٨٠ ذراعاً (ابن بسام، ١٩٦٧ : ١٨٤).

أصل تسمية تنيس:

تضاربت الروايات حول تسمية المدينة تنيس وحول أصل هذه التسمية[٩] فبينما يرى ياقوت انها سُميت على اسم تنيس بنت دلوكة الملكة العجوز صاحبة حائط العجوز بمصر (ياقوت : ٥٢) فاننا نرى ابن بسام ينسب هذه التسمية الى تنيس بنت صاين تدارس أحد ملوك القبط (ابن بسام : ١٨٩). وفي الوقت ذاته يتفق ابن دقماق (جـ ٢ : ٧٨) مع المقريزي على أنها سُميت باسم تنيس بن حام بن نوح، الأخ الثاني لدمياط بن حام بن نوح[١٠].

صحة هوائها وقلة وبائها:

وكانت مدينة تنيس صحيحة الهواء قليلة الوباء. وقد ضرب ابن بسام (ص١٨٣) مثلاً على صحة هوائها وقلة وبائها بقوله: «ان أكثر من يعمل بها يأكلون الأسماك والأطعمة الزفرة ولا يغسلون أيديهم ويعودون الى رقمهم ونسجهم ولا يُشم فيه من روائح تلك الزهومات شيء بل يطيب نسمه ويستلذ نشره وذلك دليل على صحة

الهواء وقلة الوباء ». وزاد ابن بسام في مدح نقاء جو المدينة وخلوها من الحشرات المؤذية والهوام بقوله: «انه لا يوجد من خبزها ولا بُرها ولا في أرضها ولا في بنائها شيء من الحيوان المهلك والدبيب المؤذي. وعلل بعض النقاد عدم وجود الهوام المؤذية في أرضها. وعدم سرعة فساد جثث موتاها الى أن أرضها أرض سبخة شديدة الملوحة (ياقوت: ٥٦، القزويني، ١٩٦٠: ١٧٦).

وقد خلت مدينة تنيس من الزرع بسبب ملوحة أرضها، ولذلك كان معظم اعتماد سكانها في مأكلهم ومشربهم بوجه خاص على ما يأتيهم من خارج جزيرتهم اذ لم يكن لديهم من أنواع المأكل غير ما يتصيدون من أسماك وطيور، أما بقية المأكولات وبخاصة القمح والشعير والفواكه فكانت تُحمل اليهم بواسطة السفن الوافدة عليهم من مختلف قرى مصر (ناصري خسرو، ١٩٧٠: ٨٠).

وكان لتنيس موسم صيد يكون فيه من أنواع الطيور ما لا يكون في موضع آخر، ويصل عدد أنواع هذه الطيور الى مائة وثلاثين صنفاً[١١]. كذلك كان أهل تنيس أصحاب خبرة ومهارة في صيد السمك، وكانوا يصطادون من أصنافه تسعة وسبعين صنفاً (ياقوت، ١٩٥٦: ٥٣، القزويني، ١٩٦٠: ١٧٧ ـ ١٧٨). وأورد المقريزي ان أهل تنيس كانوا يصطادون السماني وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم دون عناء وذلك عند خروجه من البحر ووقوعه في شباكهم (المقريزي، ١٢٧٠ هـ: ١٧٧).

ماء تنيس بين العذوبة والملوحة:

ولقد أجمعت المصادر على ملوحة ماء بحيرة تنيس معظم العام وعذوبته فترة قصيرة من العام يقوم أهل المدينة خلالها بتخزين هذا الماء العذب في صهاريج خاصة عندهم يسقون منها بقية العام. ذكر المقريزي في خططه (جـ١: ١٨٠) أن مياه البحيرة تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مالحة، وأضاف ان البحيرة في سنة ٢٤٩ هـ عذبت صيفاً وشتاءً ثم عادت ملحة صيفاً وشتاءً. ويقول كتاب صورة الأرض في هذا الخصوص (ابن حوقل، ١٩٣٨: ١٤٦): «واذا امتد النيل في فصل الصيف وتكاملت زيادته غلبت حلاوته على ماء البحر فصارت البحيرة حلوة ويعذب ماؤها واذا جزر في الشتاء الى أوان الحر غلب ماء البحر عليها فملح ماؤها وغاص منها ماء النيل».

ويعلل ياقوت سر ملوحة ماء البحيرة أكثر العام بقوله: «ويكون ماؤها اكثر السنة ملحاً لدخول ماء بحر الروم اليه عند هبوب ريح الشمال فاذا انصرف نيل مصر في دخول الشتاء وكثر هبوب الريح الغربية قلت البحيرة وحلا سيف البحر الملح مقدار بريدين حتى يجاوز مدينة الفرما فحينئذٍ يخزنون الماء في جباب لهم ويعدونه لسنتهم» (ياقوت: ٥١).

ويعرض ابن دقماق رأيه في هذا الخصوص بقوله: «والفقهاء والفلاسفة مجمعون على أن بحيرة تنيس اذا عذبت كانت أطيب المياه غذاء وأصحها هواء وأمرعها اهضاماً لأن النيل نهاية مده الى هذه البحيرة لأن ماءه ينصب اليها وهي مالحة وتهب عليها الرياح والعواصف فتذهب غثاءه وما يجري معه من السواحل والأراضي فيذهب ويبقى ماء هذه البحيرة صافياً في أرض نقية سليمة من الشوائب فيملأون منها صهاريجهم ويقضون منها مآربهم وحوائجهم ستة أشهر ثم يغلب الماء الملح عليها فيسترفق بما قد ذخر من الماء» (ابن دقماق، ١٨٩٣: ٧٩).

ويقوم أهل تنيس بتخزين المياه العذبة في جباب أو في صهاريج ومصانع خاصة لشرب سنتهم (ياقوت، ١٩٥٦: ٥٢). وكانت بالمدينة دواليب تنقل الماء وقت زيادته الى مصانع المدينة وحماماتها. ويذكر المسعودي أن موعد تخزين المياه العذبة في تنيس وفي غيرها من سائر جزر البحيرة يكون من ماء شهر طوبة[١٢]. وأصفى ما يكون النيل في ذلك الوقت: «من بعد الغطاس وهو لعشر تمضي من طوبة وأهل مصر يفتخرون بصفاء النيل في هذا الوقت وفيه تختزن المياه أهل تنيس ودمياط وتونه وسائر قرى البحيرة» (المسعودي، ١٩٦٥: ٣٧٩). ويذكر صاحب «سفرنامة» (ناصري خسرو ١٩٧٠: ٧٨) أن أهل تنيس ابتنوا صهاريج عظيمة تحت الأرض قوية البنيان كانت تُسمى بالمصانع «وحين يغلب ماء النيل ويطرد الماء الملح من هناك تملأ هذه الأحواض حين يفتحون له الطريق، وماء هذه المدينة من تلك المصانع التي تمتلىء وقت زيادة النيل ويُستعمل هذا الماء حتى السنة التالية وكل من لديه ماء فوق حاجته يبيع الفائض لغيره وبتنيس مصانع كثيرة موقوفة يُعطى ماؤها للغرباء». وذكر ابن بسام أنه كان بتنيس، على أيامه، مصنعان عظيمان من مصانع المياه هذه تنسبان الى عمرو بن حفص وهما مكشوفتا السقوف ويتألف المصنع الغربي منهما من أحد وعشرين بيتاً بينما يتألف الشرقي من ثمانية عشر بيتا. كذلك أشار الى وجود

مصنع مسقوف في وسط المدينة بناه عبدالعزيز الجروي : « يُنقل اليه الماء على دولاب يشتمل على ستين قادوساً يعمل مدة شهرين كاملين بلياليهما ويسع كل قادوس في تفريغه في يوم وليلة ألف جرة ملء كل جرة أقساط من ماء فيكون هذا المصنع ثلاثة آلاف ألف ألف جرة وستمائة جرة » (ابن بسام ، ١٩٦٧ : ١٨٨). وكان لابن بسام نفسه مصنع دون هذا المصنع ، كذلك كان لابن طولون ثلاثة مصانع أحدها بالقرب من السوق والآخر في زيادة الجامع .

تاريخ تنيس السياسي :

ورد في كتاب فتوح البلدان (البلاذري ، ١٩٥٦ : ٢٥٤) أن العرب لمّا فتحوا مصر سنة ٢٠ هـ . قاموا باستخلاص كل بلادها من يد حكامها البيزنطيين ووجه عمرو بن العاص القائد عُمير بن وهب الجُمحي الى تنيس ودمياط وتونه ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ليفتحها فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط . وأورد ياقوت (ص٥٢) ان تنيس ، وقت فتح المسلمين لها ، كانت خصاصاً من قصب وان الروم الذين كانوا بها قاتلوا أصحاب عمرو . وذكر أنه قتل بها جماعة من المسلمين وان قبورهم تُعرف بقبور الشهداء عند الرمل فوق مسجد غازي جانب الأكوام . وأورد ان الوقعة كانت عند قبة أبي جعفر بن زيد وهي التي كانت تُعرف باسم قبة الفتح .

وورد في كتاب الخطط (المقريزي ، ١٢٧٠ هـ : ١٧٧) ، نقلاً عن جامع تاريخ دمياط ، أنه كان على تنيس وقت الفتح الاسلامي لها رجل يقال له أبو ثور من العرب المتنصرة ، وان المسلمين ، بعد أن فتحوا دمياط ، توجهوا لفتح تنيس فبرز اليهم نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور في يد المسلمين وانهزام أصحابه . وأضاف بأن المسلمين دخلوا البلدة وحولوا كنيستها الى جامع وقسموا الغنائم بينهم وأصبحت تنيس من ساعتها بيد المسلمين .

هذا ولم تورد المصادر الاسلامية شيئاً عن تنيس بعد فتحها حتى نهاية القرن الأول الهجري ، سوى ما ذكره عنها ياقوت بقوله أنها كانت تُعرف بذات الأخصاص الى صدر من أيام بني أمية وأن أهلها بنوا بها قصوراً ، وأنها لم تزل كذلك الى صدر

من أيام بني العباس حتى بناية سورها (ياقوت ، ١٩٥٦ : ٥٢).

ويبدو من قراءة الأحداث التي أوردتها المصادر الاسلامية عن تنيس في القرن الثالث الهجري أن سر بناية سور تنيس يرجع الى تعرض هذه المدينة لهجوم مستمر من جانب الروم بعد أن ازدهرت المدينة ونمت في العصر العباسي الأول كما سوف نرى.

ويُقرر ياقوت أنه بُدىء في بناء سور تنيس في شهر ربيع الأول سنة ٢٣٠ هـ ، وكان والي مصر يومئذ عيسى بن منصور بن عيسى الخراساني المعروف بالرافعي من قبل إيتاخ التركي أيام خلافة الواثق بن المعتصم (ياقوت ، ١٩٥٦ : ٥١). وأنه فُرغ من بنائه في ولاية عنبسة بن اسحق بن شُمر الضبي الهروي في أيام الخليفة المتوكل العباسي. وكان عنبسة قد انفق في بنائه مالاً كثيراً (المقريزي ، ١٢٧٠ هـ : ١٨٠ ، و (Stanley, L.P. 1900, P. 41) . وكان ذرع هذا السور ٣٢٨٥ ذراعاً ، وبه تسع عشرة باباً واحد منها مصفح بالنحاس والباقي مصفح بالحديد. وكان يتصل بهذا السور قنطرتان يُسلك من تحتهما الى مينائين ، لكل ميناء منهما باب مصفح يمنع من يريد أن يدخله منه بغير اذن (ابن بسام ، ١٩٦٧ : ١٨٤).

تنيس زمن الصراع بين الأمين والمأمون :

ولعبت تنيس دوراً مميزاً في المجالين السياسي والحربي لتاريخ مصر الاسلامية في أثناء الصراع الداخلي أو الغزو الخارجي وذلك بحكم موقعها كجزيرة منفصلة عن المعمور المصري.

فكانت تنيس ، في عصر الولاة ، مأوى لبعض القواد والثوار الخارجين على أمر الخلافة العباسية وخاصة أيام الصراع بين الأمين والمأمون[١٣]. وكان أنصار الأمين يلجأون اليها فيرسل لهم المأمون القوات لقتالهم في تنيس واعادة ولائها اليه (الكندي ، ١٩٠٨ : ١٥٣ - ١٥٤). وكان عبدالعزيز بن الوزير الجروي من القواد الأقوياء الذين احتموا بها ، وكذلك احتمى بها من بعده ابنه علي بن الجروي واتسع بها سلطانه مما دعى المأمون الى الاعتراف بولايته عليها مع الخوف الشرقي وضم خراجها اليه[١٤].

وكان الاضطراب قد عم في مصر، فترة الصراع بين الأخوين المتنازعين على كرسي الخلافة، ولّما علم أهلها بخلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد فكر فريق من الجند بها في خلع الأمين غضباً للمأمون، وتزعم هذه الحركة السري بن الحكم عندما بلغه نبأ انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين. ولم يهمل الخليفة، من جانبه، أمر مصر فكتب الى وجوه القوم فيها يدعوهم الى مناصرة دعواه فأجابوه كلهم سراً كما ورد على لسان الكندي. ثم ورد كتاب قائده هرثمة بن أعين الى عباد بن محمد بن حيان - وكان وكيلاً على ضياع هرثمة بمصر - يدعوه الى اظهار الدعوة للمأمون، فجمع الجند في المسجد وقرأ عليهم كتاب هرثمة ودعاهم الى خلع الأمين فأجابه نفر عظيم منهم وبايعوا المأمون وخلعوا الأمين وكان ذلك في جمادي الآخرة من سنة ١٩٦ هـ. وثار الجند على الوالي جابر بن الأشعث فأخرجوه من مصر في رجب من هذا العام، ثم وُلي عليهم عبّاد بن محمد من قبل المأمون (كاشف، ١٩٧٠: ١٤٤ - ١٤٥). ولما علم الأمين بخلعه في مصر واخراج واليه كتب إلى ربيعة بن قيس، زعيم قبيلة بالحوف الشرقي، يبلغه اختياره والياً على مصر، وكتب الى بعض وجوه القوم في مصر يطلب منهم معاونة ربيعة ويدعوهم الى خلع المأمون ومحاربة عبّاد. الا أن عباداً سرعان ما حفر خندقاً حول الفسطاط للدفاع عنها فسار ربيعة بن قيس بقواته الى الخندق (آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧ هـ) ووقعت الحرب بين الطرفين عند الخندق واستمرت لعدة أشهر دون أن ينتصر أحدهما على الآخر، فرأى عباد أن يحاربهم في الحوف. وهنا تظهر على مسرح الأحداث شخصية عبدالعزيز بن الوزير الجروي[١٥]، الذي كانت له ولاية تنيس، والذي قاد جيش عباد لمحاربة ربيعة في الحوف.

ولقد انهزم الجروي في هذه الحرب، فمضى في قومه من لخم وجذام الى مدينة فاقوس، وهناك حرضه قومه على أن يدعو لنفسه بالولاية على مصر السفلى (الدلتا) فصادف ذلك هوى في نفسه فذهب الى بلبيس ومن هناك أعلن نفسه والياً على مصر السفلى وبعث عماله لجباية خراجها وجعل تنيس قاعدة له (الكندي، ١٩٠٨: ١٥٧ - ١٥٨).

وفي أثناء القتال بين أهل الحوف وعباد وصل الى مصر خبر مقتل الأمين (في المحرم سنة ١٩٨ هـ) والبيعة للمأمون، فتفرق أهل الحوف، وعزل المأمون عباداً عن

ولاية مصر وولّى عليها ، بدلاً عنه ، المطلب بن عبدالله الخزاعي (الكندي : ١٥٨) ، لكن المطلب لم يستمر في ولايته لأكثر من سبعة أشهر ، اذ قام المأمون بعزله وولّى مكانه العباس بن موسى بن عيسى العباسي . وقد تولى عبدالعزيز بن الجروي سنة ١٩٨ هـ أعمال الشرطة بتفويض من العباس . لكن الجروي لم يستمر في وظيفته طويلاً بسبب عزله عنها بعد أن نجح المطلب في استعادة الولاية على مصر بفضل تأييد الجند ومبايعتهم له (في المحرم ١٩٩ هـ) . ولقد حل مكانه في رئاسة الشرطة أحمد بن حوى بن حوى ثم خلفه عليها هبيرة بن هاشم بن حديج . ولما انقلب الحال على ابن الجروي لم يجد أمامه الا الهرب الى قاعدته تنيس ليجد الحماية فيها (الكندي : ١٥٩) .

ويذكر لنا الكندي أن المطلب يكاتب أهل الحوف ، بعد موت العباس بن موسى فيبايعونه (في حادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ) ويقوم بتولية يزيد بن خطاب الكلبي على الوجه البحري ويُبقي ابن الجروي على ولاية تنيس ويطلب منه الشخوص الى الفسطاط لاستلام التفويض بالولاية عليها . ويبدو أن المطلب أراد أن يستدرج الجروي اليه ويوقع به ، لكن الجروي تنبه الى غرضه وامتنع عن الشخوص الى الفسطاط ، فما كان من المطلب إلا أن قام بعزله عن ولاية تنيس وبعث اليها بوالٍ جديد غيره . ولم يكن أمام الجروي إلا أن يدافع عن ولايته فجهز ، حسب رواية الكندي ، مراكبه وسار بها حتى نزل مدينة شطنوف بالدلتا لملاقاة قوات المطلب التي كان السري بن الحكم يتولى قيادتها ، وكانت هذه القوات قد جاءت لتخيره بين الصلح والقتال . لكن اللقاء بين السري وابن الجروي انتهى بخديعة السري ووقوعه أسيراً في يد الجروي الذي مضى به الى تنيس وسجنه بها(في جمادي الأولى سنة ١٩٩ هـ) . ويبدو أن بلاداً عدة في شرقي الدلتا دخلت آنذاك في حوزة ابن الجروي الأمر الذي زاد في قوته وفي تحديه لقوة الوالي الشرعي . وبعد أن قام ابن الجروي بسجن السري ابن الحكم توجه بقواته لمقاتلة يزيد بن الخطاب عامل المطلب على الوجه البحري وتمكن من الانتصار عليه . وقام المطلب بارسال قوات أخرى لمقاتلة ابن الجروي وتوجهت الى تنيس بقيادة ابن عبدالغفار الجُمحي ، ولكن الجروي تمكن أيضاً من هزيمته وأسره مع وجوه أصحابه بعد أن أحرز النصر عليه (في أول يوم رجب سنة ١٩٩ هـ) في وقعة سفط سليط (الكندي ، ١٩٠٨ : ١٥٨) .

وتدخل عبدالعزيز بن الوزير الجروي في أمور مدينة الاسكندرية واستطاع أن يستميل واليها الى جانبه ويجعله يدعو له بها الأمر الذي زاد في قوته ووسع سلطانه[١٦]. لكن والي الاسكندرية (ابن هلال) لم يستمر على ولايته لها بسبب افساد أهل الاسكندرية لمخطط ابن الجروي وأطماعه في الاسكندرية ومساعدتهم الفضل بن عبدالله في أن يصير والياً عليها بعد ثورتهم على ابن هلال واخراجه منها على أثر هزية حلفائه الاندلسيين واخراجهم من الاسكندرية الى مراكبهم[١٧].

ووقعت في سنة ٢٠٠ هـ حروب بين ابن الجروي والمطلب أطلق ابن الجروي على أثرها السري بن الحكم من سجنه ووجهه لمحاربة المطلب بعد أن عاهده على مساعدته في خلع المطلب عن ولاية مصر وعلى أن يذكر للمصريين ان كتاباً ورد من دار الخلافة بولايته على مصر. واستطاعت القوات التي جهزها ابن الجروي بقيادة السري ان تنتصر على المطلب وان تُسلم السري ولاية مصر بعد خروج المطلب عنها سنة ٢٠٠ هـ الى مكة (الكندي: ١٥٩). وأجمع الجند بعد ذلك على ولاية السري بن الحكم على مصر ودُعي بالاسكندرية لابن الجروي بعد أن انضافت الى منطقة نفوذه اضافة الى ما تحت يده من أقاليم شرق الدلتا من شطنوف الى الفرما.

وما كاد الأمر يستقر للسري بن الحكم حتى عمل على التخلص من سيطرة عبدالعزيز بن الجروي والقضاء عليه، فوقع نتيجة ذلك صراع مرير بين هذين القائدين ومعارك عدة[١٨] لم يحسمها الا موت عبدالعزيز الجروي سنة ٢٠٥ هـ[١٩].

علي بن الجروي والٍ على تنيس:

وخلف علي الجروي والده عبدالعزيز في الولاية على تنيس مع الحوف الشرقي وبقية الدلتا، كذلك خلف أبو النصر بن السري والده على ولاية مصر بعد وفاة والده. وورث الولدان صراع أبويهما وجرت بينهما عدة معارك انتهت بابرام صلح بينهما على أن يكف أحدهما عن الآخر. ولكن أبا النصر بن السري توفي (في شعبان سنة ٢٠٦ هـ) وكانت ولايته أربعة عشر شهراً، وخلفه على ولاية مصر أخوه عبيدالله بن السري بعد أن بايعه الجند بذلك. وتمت مهادنة بين ابن السري وابن الجروي حتى بداية سنة ٢٠٦ هـ. وفي هذا العام عقد الخليفة المأمون ولاية مصر لخالد بن يزيد

الشيباني وأرسله اليها في جيش من ربيعة. الا ان ابن السري لم يعترف بهذه البيعة واحتج بأن كتاب أمير المؤمنين المأمون ورد عليه بولايته. ونجح ابن السري في منع خالد من دخول مصر وأجبره على الرحيل الى مكة. ويبدو أن المأمون، بسبب كثرة مشاغله وعدم تفرغه لأمر مصر، أقر عبيدالله بن السري على ولاية مصر، كذلك أقر عليّ بن الجروي على تنيس والوجه البحري. وسرعان ما عادت الحرب بين ابن الجروي وابن السري، لكن النصر لم يحسم بينهما (الكندي: ١٧٩).

وتحدث الكندي عن وصول قائد المأمون عبدالله بن طاهر من الشام الى مصر سنة ٢١٠ هـ لاقرار الأمور فيها ووضع حد للصراع بين ابن الجروي وابن السري. وذكر أن ابن الجروي سارع للقائه بالأموال والهدايا واعلان انضمامه بقواته اليه لمحاربة ابن السري. وقبل ابن طاهر عرض ابن الجروي ولّما أقبلت سفنه من الشام جعل ابن الجروي قائداً عليها لمعرفته الحرب في البحر. والتقت قوات ابن طاهر بقيادة ابن الجروي مع قوات ابن السري فهزمتها، فطلب ابن السري الأمان والصلح فأمنه ابن طاهر، وخلع عليه وأجازه بعشرة آلاف دينار وأمره بالخروج الى المأمون.
وخلع عليه وأجازه بعشرة آلاف دينار وأمره بالخروج الى المأمون.

وبرحيل ابن السري صارت ولاية مصر الى عبدالله بن طاهر من قبل الخليفة المأمون على صلاتها وخراجها سنة ٢١١ هـ. وبتوليته سكنت الفتن والحروب في مصر بعد أن صالح الأندلسيين في الاسكندرية على أن يخرجوا الى جزيرة اقريطش (كريت) وبعد أن أقر علي بن الجروي على ولاية تنيس (الكندي: ١٨٣).

ويستمر علي بن الجروي في ولاية تنيس حتى قدوم الأفشين حيدر بن كاووس الصفدي الى مصر أثناء ولاية عبدويه بن جبلة (٣ ذي القعدة ٢١٥ هـ). وكانت نهاية علي الجروي على يد الأفشين. وقد قام الأفشين بقتله بسبب امتناعه عن تقديم الأموال اليه وكان ذلك ثالث أيام عيد الأضحى سنة ٢١٥ هـ. وذكر الكندي أن عبدالله بن عبدالعزيز الجروي خلف أخاه على ولاية تنيس (الكندي: ١٩٠).

القضاء على بيت الجروي بتنيس:

هذا ونسمع عن ثورة في تنيس يقوم بها واحد من أبناء عبدالعزيز الجروي اسمه يحيى سنة ٢١٧ هـ ضد كيدر بن نصر بن عبدالله والي مصر آنذاك، بسبب قيام كيدر بتنفيذ أمر الخليفة المعتصم العباسي باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم. وخرج يحيى الجروي في جمع من لخم وجذام وقال: «هذا أمر لا نقوم في أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا». واستمع اليه نحو من خمسمائة رجل. وفي عام ٢١٩ هـ مات كيدر وخلفه على ولاية مصر ابنه المظفر الذي خرج الى يحيى الجروي وقاتله في بحيرة تنيس وهزمه وأسره بعد أن تفرق عنه أصحابه (الكندي: ١٩٠ ـ ١٩٣). وبسبب هذه الهزيمة فقد آل الجروي ولاية تنيس منذ ذلك التاريخ وصمتت المصادر عن ذكر أخبارهم فيها.

ويبدو أن ولاة مصر اهتموا، بعد القضاء على البيت الجروي بتنيس، بفرض سيطرتهم المباشرة على تنيس وعدم السماح لأي بيت من البيوتات القوية بالاستئثار بحكمها واظهار سلطة الدولة فيها، وذلك حتى لا تكون مصدراً لمتاعب مستقبلية لهم. وقد تجلى ذلك الأمر، فيما أورده ياقوت عن إحكام قبضة الدولة على تنيس واستمرار زيارة الولاة لها احكاماً لهذه السيطرة. وازداد هذا الاهتمام في عهد حكم ابن طولون الذي ورد عنه أنه دخلها في سنة ٢٦٩ هـ وأنه بنى بها عدة صهاريج وحوانيت كثيرة في سوقها الكبير، وعُرفت صهاريجه بها باسم صهاريج الأمير (ياقوت، ١٩٥٦، ص٥٢). هذا وكان ابن طولون يُحصِل المكوس على التجارة الخارجية التي كانت تمر بهذا الثغر صادرة أو واردة (سرور، ١٩٦٦: ٤٠).

تنيس في العهدين الطولوني والفاطمي:

وكانت تنيس مسرحاً للمعركة الحاسمة التي انهت حكم دولة الطولونيين في مصر وعودة السيادة العباسية عليها، وكانت بين جيش محمد بن سليمان الكاتب قائد العباسيين وبين هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون آخر حكام بن طولون في مصر، (Hassan, 1933, p.12).

ولقد أورد الكندي (ص٢٤٥) ان هاروناً بعث بقائده وصيف القطرميز في

المراكب الحربية ومعه خصيب البربري فساروا في النيل حتى أتوا تنيس ليمنعوا القائد محمد بن سليمان ، الذي كان قد وصل بقواته الى المدينة ، من التقدم الى العاصمة . وذكر أن الأسطولين تقابلا عند تنيس وان الأسطول المصري هُزِم وأن المدينة سقطت في يد قوات العباسيين ، وأن بسقوطها فُتح الطريق أمام الجيش العباسي لاحتلال العاصمة وانهاء حكم الطولونيين . وأضاف الكندي أن دميان ، أحد قواد العباسيين . دخل تنيس بعد المعركة وأمن أهلها وسكنهم (الكندي : ص٢٤٥) .

وفي بداية الحكم الفاطمي لمصر ، تعرضت تنيس لغزو القرامطة سنة ٣٦٢ هـ ، وساروا اليها براً وبحراً لكن المصريين دحروا هذا الغزو وخلف القرامطة وراءهم بتنيس عدة مراكب وأسرى (المقريزي : ١٤٢) ، ولذلك جعل الفاطميون على كل من تنيس وعيذاب (ميناء على البحر الأحمر) والياً يحكمها نظراً لأهميتها التجارية والاستراتيجية (سرور ، ١٩٦٦ : ١٤٤) .

وبسبب أهمية تنيس في ذلك العصر والرغبة في الحفاظ عليها من هجوم الفرنج نسمع من الرحالة الفارسي ناصري خسرو (١٩٧٠ : ٧٩) أن الفاطميين وضعوا بها جيشاً كامل السلاح احتياطاً للدفاع عنها ، وأنه كان يرابط حولها ألف سفينة دوْماً منها ما هو للتجار وكثير منها للسلطان .

وذكر المقريزي ان جند السودان وغيرهم من الجند ثاروا بتنيس سنة ٤١٥ هـ على عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي (ابن الخليفة الحاكم) مطالبين بأرزاقهم ، وأن الثوار ضيقوا على العامل حتى هرب ، وأنهم عاثوا في البلد وأفسدوا ونهبوا الناس وقطعوا الطرقات . وأضاف بأنهم أخذوا من المودع من الأموال ألف وخمسمائة دينار . غير أن القائد نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجرائي سارع بالقضاء على الثورة وذلك بارسال فرسانه إلى تنيس وهزيمة الثوار بها (المقريزي ، ١٢٧٠ هـ : ـ ١٨١) .

نمو تنيس الاقتصادي :

وصفت مصادر المؤرخين المسلمين تنيساً ـ مع بداية الفتح العربي لها ـ على أنها مجرد أخصاص من قصب (أي ملاذ للصيادين) حتى عُرفت بذات الأخصاص .

وأوردت هذه المصادر أنها ظلت على هذا الحال الى صدر من أيام بني أمية ـ (ياقوت ، ١٩٥٦ : ٥٢). ثم انتقلت هذه المصادر ـ فجأة ـ الى الحديث عن الازدهار الاقتصادي لهذه المدينة واتخاذ أهلها القصور في أواخر عهد الدولة الأموية ، ثم الحديث عن بناء سورها في سنة ٢٣٠ هـ.

ولو وقفنا عند هذه المرحلة من تطور المدينة وبحثنا أسباب هذا التطور لوجدنا ان المدينة برزت ـ مع مطلع القرن الثاني الهجري ـ كمدينة متخصصة في صناعة أشهر أنواع النسيج ، وأنها واصلت نموها خلال حكم الخلافة العباسية ، الأمر الذي دعا خلفاء العباسيين الى الاهتمام بحمايتها من هجوم الافرنج وبناية سور حولها. كذلك نجد أحمد بن طولون يهتم بأمر المدينة ويواصل تردده عليها ويشرع في بناء صهاريج ضخمة للمياه بها عُرفت ، كما أسلفنا ، بصهاريج الأمير ، كذلك في اقامة حوانيت كثيرة في السوق كما أخبرت المصادر بذلك (ياقوت : ٥٢).

وحين وصلت صناعة تنيس من المنسوجات الى قمتها وراجت سمعتها في العالم ، مع بداية حكم الفاطميين لمصر[٢٠] ، وصلت المدينة الى غاية نموها العمراني وازدهارها الاقتصادي وعاشت تنيس عصرها الذهبي وهو عصر الوظيفة الصناعية التجارية (الشامي ، ١٩٧٧ : ٤٠٧).

ازدهار صناعة النسيج بتنيس:

اشتهرت مدينة تنيس ، منذ القدم ، بتفوقها في صناعة النسيج وبخاصة المنسوجات الكتانية ، واستمرت شهرتها هذه في العصر القبطي وفي العصر الاسلامي أيام حكم الولاة. الا أن هذه الشهرة زادت على عهد حكم بني طولون وبني الأخشيد لمصر ، وبلغت قمتها أيام حكم دولة الفاطميين.

وجاء تخصص سكان تنيس في صناعة المنسوجات الكتانية بسبب توافر زراعة نبات الكتان في بلادهم وازدياد خبرة أهل هذه المدينة الطويلة بأمر تصنيعه. وكان الكتان يزرع بمساحات كبيرة في منطقة تنيس لأن أرض هذه المدينة كانت تناسب زراعته بسبب حاجة هذا النبات لأرض رطبة وبربة جيدة مثل أرضها وتربتها (ريسلر : ١١٥).

وقد تأكد تقدم صناعة المنسوجات الكتانية في منطقة تنيس، التي كانت تضم مدن تنيس ودمياط وشطا ودبيق، على أيدي أهل هذه المنطقة في العصر القبطي وان تكن تلك الصناعة قد تأثرت بالأساليب الزخرفية البيزنطية وما تمثلته بيزنطة من الموضوعات الزخرفية الساسانية (كاشف: ١٩٦٠: ١٨٨). وقد بقيت هذه الصناعة في يد أهل البلاد الأصليين في العصر الاسلامي سواء منهم من اعتنق الاسلام أو تمسك بالنصرانية. ويذكر ياقوت أن ناسجي الثياب في تنيس ودمياط كانوا من القبط ولذلك نجد العرب يُطلقون على المنسوجات المصرية اسم «القباطي» لحملهم لواء هذه الصناعة لمدة طويلة دون أن يشاركهم أحد فيها (كاشف، ١٩٧٠: ٢٤٩).

وكانت صناعة النسيج، التي اختصت بها منطقة تنيس، من أهم الصناعات التي مستها النهضة في العصرين الطولوني والأخشيدي. وتجلت هذه النهضة التي أصابت صناعة النسيج آنذاك في ناحيتين: الأولى في مضاعفة الانتاج الى أبعد حد ممكن لمواجهة حاجة الدولة المستمرة من النسيج وعطايا الأمير وخلعه على رجال الجيش ورجالات الدولة، ومواجهة حاجة قصور الطولونيين والأخشيديين ورجال حاشيتهم من الفرش والستور والأقمشة الثمينة والملبوسات. والناحية الثانية في استحداث اسلوب جديد من أساليب الصناعة، وفي هذه الناحية يُعتبر هذا العصر في صناعة النسيج مرحلة انتقال بين العصر القبطي والعصر الاسلامي البحت (كاشف، ١٩٦٠: ١١٢).

وقد بقيت مصانع النسيج في ذلك العصر، على ما كانت عليه منذ الفتح الاسلامي، حكراً للحكومة وخاضعة لها، وهو نظام أخذه المسلمون عن بيزنطة. وانقسمت هذه المصانع الى نوعين: نوع يقوم باعداد نسيج الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة وعُرف باسم طراز الخاصة[٢١]، ونوع آخر يقوم بعمل نسيج عامة الشعب وعُرف باسم طراز العامة (زكي، ١٩٣٥: ٨٤). وكان يُشرف على الطراز موظف كبير يُسمى صاحب الطراز أو ناظر الطراز[٢٢]. ومن أصحاب الطراز في العصر الأخشيدي الذين وصلت الينا أسماؤهم: جابر، شفيع، بكر، أبو زيد، عُبيد، وفائز. وقد جاءت أسماؤهم على قطع مختلفة من نسيج الكتان التي لا تزال محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة وفي القسم الاسلامي بمتحف برلين (كاشف، ١٩٦٠: ١٨٨ ـ ١٨٩).

وكانت تسير مع المصانع الحكومية (الطراز الخاص والعام)، جنباً الى جنب، مصانع أهلية خاصة تعتمد على صناعة النسيج المنزلية التي انتشرت، على وجه الخصوص، في منطقة الدلتا وكانت قائمة على جهود ربات البيوت اللائي كن يقمن بغزل الكتان او القطن أو الصوف في منازلهن، بينما يتولى الرجال أعمال النسيج وذلك مقابل أجر يومي زهيد لم يكن يتجاوز نصف الدرهم (متز، ١٩٥٧ : ٣٤٨). كذلك لم تكن هذه المصانع الأهلية حرة في تسويق انتاجها بل كانت تبيع لسماسرة الحكومة ووسطائها، وكان انتاجها من الأقمشة يختم بخاتم الدولة الرسمي ويُقيد ما يباع منها في سجلات خاصة. (Wiet, 1937).

أنواع النسيج التنيسي:

وذكر ابن بسام أنه كان بتنيس، على عهده (أواخر القرن السادس الهجري وأوائل السابع) من دور الطراز (مصانع النسيج) نحو خمسة آلاف دار كان يعمل فيها عشرة آلاف عامل سوى من يُطيب أو يُرقِم من ذكر وأنثى. وقد انتجت مصانع تنيس ثياباً نفيسة لم يكن لها نظير في الدنيا (القلقشندي، ١٩١٥ : ٣٨٣)، وتميز انتاجها بالجودة الفائقة مما جعلها تتفوق على انتاج مصانع جاراتها من مدن شطا ودبيق ودميرة وتونه وتحرز قصب السبق عليهم. ويشهد على ذلك ما قاله ابن حوقل (ص١٤٣) في هذا الخصوص: «وان كانت شطا ودبقوا[٢٣] ودميرة وتونه وما قاربهم بتلك الجزائر يُعمل بها الرفيع من هذه الأجناس فليس ذلك يُقارب للتنيسي مما كان الحِمل على عهدنا يبلغ من عشرين ألف دينار الى ثلاثين ألف لجهاز العراق».

ولقد عدَّد ابن حوقل (ص١٤٣) أصناف نسيج تنيس بقوله: «وفيها يُتخذ ويُعمل رفيع الكتان وثياب الشرب. والدبيقي والمصبغات من الحلل النفيسة التي ليس في جميع الأرض ما يدانيها في القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة، وربما بلغت الحلة من ثيابها مائتي دينار اذا كان فيها ذهب وقد يبلغ ما لا ذهب فيه منها مائة دينار وزائداً ناقصاً. وجميع ما يُعمل بها من الكتان فربما بلغ مثقال غزل من غزولها دنانير».

وكان الثوب الفخم الذي نبغ في صناعته أهل تنيس يُسمى «المدنة»، وكان يُصنع للخليفة من الكتان ولا يدخل فيه من الغزل سوى أوقيتين ويُنسج باقيه

بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة وتبلغ قيمته ألف دينار (متز ، ١٩٥٧ : ٣٤٥). يقول صاحب مروج الذهب (المسعودي ، ١٩٦٥ : ٣٨٢ - ٣٨٦). ويُصنع بها (تنيس) الثياب الشرُب التي لا يصنع مثلها في الدنيا ». «وان الصناع بها كانوا ينسجون أثواباً تُسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يُباع الشرُب منها بألف دينار ، وكانت تُحمل منها الى بغداد. وكان يُعمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يُباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب ». وأورد المقريزي قوله من أنه ليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو سادج بغير ذهب مائة دينار عيناً غير طراز تنيس ودمياط (المقريزي ، ١٢٧٠ هـ : ١٧٧).

قصب تنيس الملون والبوقلمون :

وكان يُنسج بتنيس سُتر شديدة الرقة وملابس داخلية ناعمة الملمس (ريسلر : ١٢٥). كما كان يُنسج بها ثياب رفيعة تُعرف بالقصب كان الملون فيها يُنسج بتنيس وحدها دون سائر بلدان العالم ، وكان يُعمل من هذا القصب عمائم للرجال وملابس للنساء (Stanely, 1900, p.112) . ولقد تحدث الرحالة الفارسي ناصري خسرو (ص٧٧) عن هذا القصب الملون أثناء زيارته لمصر وقال : «كان يُنسج بتنيس القصب الملون من عمامات ووقايات ومما يلبس النساء ولا ينسج مثل هذا القصب في جهة ما غير تنيس والأبيض منه يُنسج في دمياط وما يُنسج منه في مصانع السلطان لا يُباع ولا يُعطى لأحد ».

كذلك أورد ناصري خسرو أنه كان يُنسج في تنيس قماش البوقلمون (الأباقلمون) (القزويني ، ١٩٦٠ : ١٧٧) ، وهو نوع من القماش ظهر في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، وخاصيته أنه يظهر للرائي في ألوان متقلبة وأنه يتغير بتغير ساعات النهار (ناصري خسرو : ٧٧). وكانت صناعة هذا القماش قد انتقلت آنذاك الى مصر من بلاد اليونان (ابراهيم ، ١٩٦٤ : ٥٨٤). وانفردت تنيس وحدها بصناعته (متز : ٣٤٧ - ٣٤٨). وكانت تُصنع من هذا البوقلمون أستار هوادج الجمال ولبود سروج الخيول الخاصة بالسلطان (ناصري خسرو : ٧٩). وألمح ناصري خسرو الى أن ما يُنسج للسلطان من القصب والبوقلمون كان يُدفع ثمنه كاملاً للصناع حتى يعمل هؤلاء الصناع للسلطان برضاهم وذلك على عكس ما كان يحدث في

البلاد الأخرى حيث يفرض الديوان والسلطان السخرة على الصناع (ناصري خسرو : ٧٩). وأفاد ناصري خسرو بأنه كان بتنيس صناع مختصون بنسيج ملابس السلطان وأنه سمع أن عاملاً بتنيس نسج عمامة للسلطان فأمر له السلطان بخمسمائة دينار ذهب مغربي ، وأنه رأى بنفسه هذه العمامة وذكر انه يُقال انها كانت تساوي أربعة آلاف دينار مغربي (ناصري خسرو : ٧٧).

ويبالغ ناصري خسرو في مكانة قصب وبوقلمون تنيس حين يقول : «وسمعت أن سلطان الروم كان قد أوفد رسولاً ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان ، وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون (ناصري خسرو : ٧٧) ».

وكان أباطرة بيزنطة يبعثون في القرنين الثالث والرابع الهجريين في طلب منسوجات تنيس ودمياط لتزيين قصورهم (سرور ، ١٩٦٥ : ١٥٤) ، كما أن باباوات روما كانوا يحصلون من الأسواق على تلك المنسوجات النفيسة ويقدمونها هدايا للكنائس (كاشف ، ١٩٦٥ : ٢٠١). وكان يحدث أن بعض المنسوجات النفيسة المصنوعة من طراز الخاصة كانت تُباع في الأسواق[٢٤]. وأفادنا ناصري خسرو ، في هذا الخصوص ، بقوله أنه سمع أن ملك الروم أرسل رسله إلى تنيس بعشرين ألف دينار ليشتري له بها حلة من كسوة السلطان وأن رسله قد بقوا بتنيس عدة سنين دون أن يتمكنوا من شرائها (ناصري خسرو : ٧٧).

هدايا تنيس للخليفة :

وكانت ترد إلى بلاط الخلافة في كل عام من تنيس هدية من إنتاج دور طرازها. ذكر المسبحي أن هذه الهدية وردت في ذي القعدة من سنة ٣٨٤ هـ ، وكانت تتألف من «أسفاط وتخوت وصناديق مال وخيل وبغال وحمير محملة وثلاث مظال وكسوتان للكعبة » (المقريزي ، ١٢٨٠ هـ : ١٨١ ، نقلاً عن المسبحي). وفي ذي الحجة من سنة ٤٢٠ هـ وردت هدية تنيس الواردة في كل عام «منها خمس نوق مزينة ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها وتجافيف وصناعات عدة وثلاث قباب دبيقية بمراتبها ومتحرقات وبنود وما جرى الرسم بحمله من المتاع والمال والبز » (المقريزي ، ١٢٨٠ هـ : ١٨١). وعدّد ابن بسام ما حوته رسالة تنيس أيامه قائلاً (ابن بسام :

١٨٥) : « إن عدد ما بها من الأسفاط ألف وخمسمائة سفط ومن الرُزم ألفا رزمة وبرسم خزانة السلطان أربعمائة سقط فيها من الأمتعة ما لا يُرى مثله مذهبه على هيئته المخيطة منسوجة الثوب الواحد منها بألف دينار ومناديل المنديل بخمسمائة دينار ومراتب المرتبة بألف دينار ومطارد ومقاطع ومفارش وستور مخمل ومعين وسقلاطون دبيقي ومصمت دبيقي وعتابي وما لا يمكن وصفه » .

وذكر ناصري خسرو أن دخل الدولة من صناعة تنيس بلغت أيام الفاطميين ألف دينار مغربي يومياً : « وسمعت من الثقات أنه يصل منها (تنيس) لخزانة سلطان مصر يومياً ألف دينار مغربي ويصل ذلك المقدار كله مرة واحدة يحصله شخص واحد يسلمه أهل المدينة إليه في وقت معين وهو يُسلم للخزانة فلا يتأخر منه شيء ولا يجبى شيء بالعنف من أي شخص » (ناصري خسرو : ٧٩) .

وبلغت قيمة ما كان يُصدر من تنيس إلى العراق وحدها من القماش ما تراوحت قيمته ما بين عشرين وثلاثين ألف دينار ، ويقول ابن حوقل في ذلك : « كان الحِمل على عهدنا يبلغ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق » (ابن حوقل ، ١٩٣٨ : ١٤٣) . وكان يرد إلى تنيس في كل عام خمسمائة مركب من موانى الشام لشراء منسوجاتها (ابن بسام : ١٨٦) .

كسوة الكعبة :

وكانت كسوة الكعبة تُصنع في طراز تنيس بأمر الخلفاء ، واستمر ذلك الأمر حتى بداية حكم الفاطميين حين بنى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي دار الكسوة بالقاهرة (سرور ، ١٩٦٦ : ١٥٥) .

ولقد أفادنا المقريزي في هذا الخصوص ، عما نقله عن الفاكهي في كتابه أخبار مكة ، يقول المقريزي : « ذكر الفاكهي في كتابه أخبار مكة أنه رأى كسوة من قباطي مصر مكتوباً عليها : (بسم الله مما أمر به عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان) وأن يُصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة » . ويقول المقريزي أيضاً إن الفاكهي رأى كسوة من كساء الكعبة مكتوباً عليها : « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير

المؤمنين ، أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يُصنع في طراز تنيس على يد الحاكم عبيدة سنة اثنين وستين ومائة » . (المقريزي ، ١٢٨٠ هـ : ١٨١) . والكسوة الثالثة الخاصة بطراز تنيس التي أورد المقريزي أن الفاكهي رآها وقد كُتب عليها : « مما أمر به السري بن الحكم وعبدالعزيز بن الوزير الجروي بأمر الفضل بن سهل ذي الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة[٢٥] .

شواهد على ازدهار أحوال تنيس :

بلغت مدينة تنيس قمة ازدهارها في القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) ، وقد انعكست مظاهر هذا الازدهار فيما نقله عنها المؤرخون والرحالة المعاصرون لهذه الحقبة التاريخية ومن نقل عنهم من المؤرخين المتأخرين .

ولقد تحدث عن هذا الازدهار كل من المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) وناصري خسرو (ت ٤٧٦ هـ) وابن غنائم الخطيب (توفي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري)[٢٦] ، وابن بسام (المتوفى في القرن السادس الهجري) . وعلى ضوء ما ورد في كتابات هؤلاء المؤرخين وكتابات من نقل عنهم نستطيع أن نعطي صورة عامة للحياة في هذه المدينة في عصرها الذهبي في القرنين الرابع والخامس الهجريين .

وكانت المدينة آنذاك عامرة ، شمل العمران المدينة ذاتها كما شمل أرباضها . وكانت للمدينة أرباض أربعة تحيط بها كل من جهتها ، وفي كل ربض من هذه الأرباض كانت تقوم الدور والمنشآت والمرافق العامة الحكومية والتي كانت تتصل بالصناعات القائمة في المدينة . وكانت تقوم في الربض الغربي دار صناعة السفن ودار الإمارة وحمامات للرجال (ابن بسام : ١٨٥) . وكان يقوم في الربض الشرقي : الديوان الكبير الذي كان يشتمل على عدة دواوين وعلى دواليب نقل الماء إلى المصانع وقت زيادته وعلى الحمامات ومطاحن للجبس ومواقد جير واصطبل السلطان . وفي الربض القبلي كانت تقوم دواليب أخرى لنقل الماء إلى المصانع والحمامات وأخصاص للصيادين وديوان السمك ومخازن المصايد وملاحات . وفي الربض البحري كانت تقوم مساجد وكنائس ومفارش وحجارة لتبييض الأمتعة وضرب الثياب ، وهدف للرماة ، ومصليتان إحداهما لجنائز الموتى والأخرى لصلاة العيدين (ابن بسام : ١٨٦) .

وازدحمت المدينة بالأسواق، وتحدث المقدسي عن هذه الأسواق بقوله: «إنها مدينة ذات أسواق ظريفة» (المقدسي، ١٩٠٦ : ٧٠). وقد شاهد ناصري خسرو هذه الأسواق وتجول فيها وأشاد بفخامتها (ناصري خسرو: ٧٦)، كما تحدث عن ازدياد عدد الحوانيت بهذه الأسواق فذكر أن عدد الدكاكين بها قد يبلغ عشرة آلاف من بينها مائة دكان عطار، وذكر أن بعض دكاكين تنيس كانت تبيع الكشكاب (لبن زبادي مضروب بالماء) بسبب حرارة جوها في فصل الصيف (ناصري خسرو: ٧٦). وذكر المسعودي أنه كان بتنيس من الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع ومن دكاكين البز والثياب مائة وخمسون دكاناً (المسعودي، ١٩٦٥ : ٣٨٥ - ٣٨٦).

كذلك ازدحمت المدينة بالمؤسسات التجارية والمرافق العامة، فورد على لسان ابن بسام أنه كان بها خمسون فندقاً وقيسارية وأن بنيت فيها سنة ٤٠٥ هـ ستة أدر كبيرة للتجار فصار الجميع ستة وخمسين. وكان بها من الحمامات العامة ستة وثلاثون حماماً سوى حمامات الأهلين الخاصة الملحقة بدورهم (ابن بسام: ١٨٤ - ١٨٥).

أما عن مساجدها، فذكر المسعودي أنه كان بها نحو مائة وستين مسجداً لكل مسجد منها منارة (المسعودي: ٣٨٦). وكان بين هذه المساجد مسجدان جامعان. وكان المسجد منهما يوقد في شهر رمضان بثلاثة آلاف ومائة مصباح ومائتي وخمسين شمعة (ابن بسام، ص١٨٤).

وأما عن كنائسها، فلقد كان بها عدد كبير من الكنائس قبل عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. فلقد ذكر ابن بسام أنه كان بها اثنتان وسبعون كنيسة أمر الخليفة الحاكم سنة ٤٠٣ هـ بهدمها وجعل عوضها مساجد[٢٧]. وكان البطريرك ديونيسيوس، الذي زار تنيس حوالي سنة ٢٠٠ هـ/٨١٥ م، قد تحدث عن كثرة كنائسها قائلاً عنها إنها «مدينة عامرة بالسكان كثيرة الكنائس» (متز، ١٩٥٧، ص٧٩).

وتحدثت المصادر عن ازدياد المصانع بها، وبخاصة مصانع النسيج (المناسج أو دور الطراز)، فذكر ابن بسام أنه كان بها على عهده خمسة آلاف منسج وكان عدد العمال الذين يعملون فيها عشرة آلاف عامل سوى أعداد كبيرة من الصبيان كانوا يقومون بمساعدتهم (ابن بسام: ١٧٥). واذا كانت صناعة النسيج هي الصناعة الأولى بالمدينة

فقد كانت الصناعة الثانية هي صناعة الصيد ، صيد السمك وصيد الطيور . وكان دخل الحكومة من المكوس المفروضة على صيد الأسماك خمسين ألف دينار في العام . وكان يُشرف على الصيد ويُحصل هذه الأموال ديوان الأسماك الذي كان يقع في الربض القبلي للمدينة (ابن بسام : ١٨٦) .

أما عن صيد الطيور فكانت عدة المراكب التي تُصاد بها الطيور في جزيرة تنيس وتعيش من كسبها مائة وثلاثة عشر مركباً ، وبلغت أصناف هذه الطيور التي كانت تُصاد هناك حوالي مائة صنف (ياقوت ، ١٩٥٦ : ٥٣) .

وكان أهل تنيس من أمهر ملاحي العالم ، وقد أُعجب ابن حوقل ـ مع كثرة ما شاهده في أسفاره الطويلة ـ بمهارة الملاحين الذين رآهم في تنيس (ابن حوقل ، ١٩٣٨ : ١٤٣) . وذكر ياقوت أن من حذق نواتي البحر في تنيس أنهم كانوا « يُقلعون في بحيرتها بريح واحدة ، ويديرون القلوع بها حتى يذهبوا في جهتين مختلفتين فيلقى المركب المركب مختلف السير في مثل لحظ الطرف بريح واحدة » (ياقوت ، ١٩٥٦ : ٥١) .

ولم تقتصر صناعة اهل تنيس على تلك الصناعات فحسب (صناعة النسيج والصيد) بل كانت هنالك صناعات عدة من بينها صنع المقاريض الحديدية ، فقد ذكر ناصري خسرو هذه الصناعة في كتاب رحلته بقوله : « وقد رأيت مقراضاً في مصر صُنع في تنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية يُفتح إذا رُفع مسماره ويقص إذا نزل » (ناصري خسرو ، ١٩٧٠ : ٧٩) .

مقابر تنيس :

أما عن مقابر تنيس فقد تفردت هذه المدينة بوضع خاص للمقابر بها . فلقد صورت مقابرها على أنها تلال قد نضدت فيها القبور . وقد بلغ من عظمها بالنسبة للمدينة أن اختلف الجغرافيون المسلمون في تفسيرها . فالمسعودي يشير إلى وجود ثلاثة أكوام بها تسمى أبو الكوم تضم رفات السابقين من الموتى جاءت نتيجة تجمع موتى الجزر الصغرى الأخرى المحيطة بالجزيرة الكبرى تنيس وذلك في أعقاب تعرض الإقليم لطغيان البحر . وقد جمع أهل القرى أو الجزر الباقية في تنيس موتاهم فجاءت في صورة التلال الثلاث التي تسمى أبو الكوم (المسعودي ، ١٩٦٥ : ٣٤٩) ، وقد أخذ ابن حوقل بهذا التعليل (ص١٤٩) وتبعه فيه ابن دقماق (ص٧٩) .

وللمسعودي رأي آخر في أصل هذه التلال في زعمه أنها تكونت نتجية وفاة عدد كبير من أهل تنيس على أثر وباء عمَّ أهل مصر عامة وأهل تنيس خاصة (المسعودي: ٣٦١).

وليس لتجميع المقابر في شكل تلال في تنيس من سبب إلا قدمها من ناحية ولطبيعة الجزيرة (تنيس) ذات المساحة المحدودة مع كثرة السكان مما يجعل المساحة المخصصة لهذا الغرض محدودة. وليس من المستبعد أن صلاحية موضع الدفن في الجزيرة هي التي حددت هذه البقعة المرتفعة ثم حدث قيام المقابر الأحدث فوق القديمة مما أبرز الارتفاع النسبي لها. ولعل سلامة المناخ وملوحة الأرض بتنيس كانت وراء بقاء العظام دون تحلل مما أبقى هذه الكمية الكبيرة من الجماجم والعظام (الشامي، ١٩٧٧: ٤١٩).

ثراء أهل تنيس:

ولقد انعكس رواج تنيس الاقتصادي، في القرنين الرابع والخامس الهجريين، على أهلها فصاروا، كما أورد عنهم المقريزي: «مياسير أصحاب ثراء» (المقريزي، ١٢٧٠ هـ: ١٧٧). وأورد ياقوت في معجمه رواية تفيد كثرة الكسب ويسره في تنيس فيقول: «قيل إن الأوزاعي رأى بشراً بن مالك يلتبط في المعيشة فقال: أراك تطلب الرزق. ألا أدلك على أم متعيش. قال: وما أم متعيش؟ قال: تنيس، ما لزمها أقطع اليدين إلا رتبته. قال بشر فلزمتها فكسبت فيها أربعة آلاف» (ياقوت، ١٩٥٦: ٥٢).

وعلى الرغم من تدهور أحوال أهل تنيس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إلا أن بعض أهلها ظلوا على ثرائهم ودليل على ذلك ما أورده المقريزي عن اقتراض الوزير بدر الجمالي سنة ٤٦٩ هـ مالاً من تجار تنيس (المقريزي: ٣١١).

طبقات سكان تنيس:

وكان عدد سكان تنيس، في القرن الخامس الهجري، خمسون ألفاً، وقد أورد ناصري خسرو هذا العدد وصادق عليه ابن بسام الذي بنى صحة تقديره استنتاجاً من حجم ما كان يستهلكه أهل المدينة من الدقيق الناتج من طحن مائتي ألف أردب

من **الحنطة والشعير والذرة**. (ناصري خسرو: ٧٨، ابن بسام: ١٨٨). وكان غالبية سكان تنيس من المسلمين مع وجود أهل الذمة بها من النصارى. ولقد قدر البكري عدد النصارى بها بأكثر من عشرة آلاف نسمة في حين حدد الوطواط عددهم بتسعة آلاف قبطي من أصل ثلاثة وثلاثين ألف يسكنون المدينة (الشامي: ٤٠٩). ولم تشر المصادر إلى سكن اليهود مدينة تنيس. وقد أشار البطريرك ديونيسيوس، الذي زار هذه المدينة مع مطلع القرن الثالث الهجري (٢٠٠ هـ) أن نصارى تنيس كانوا يشتغلون بنسج الكتان بالأجر، وأن أحوالهم الاجتماعية كانت سيئة لأنهم كانوا يشكلون الطبقة الدنيا من سكان المدينة. إلا أن البطريرك أورد أنهم كانوا يتمتعون بحرية العقيدة. وشاهد على هذا القول ما ورد من قول من أن المسلمين حين ثاروا سنة ٣٠٠ هـ على النصارى وهدموا إحدى كنائسهم في تنيس قام السلطان بإعانتهم على إعادة بنائها (متز، ١٩٥٧: ٧٩).

أخلاق وطبائع أهل تنيس:

وعن أخلاق أهل تنيس ذكر المقريزي أن أخلاقهم سهلة منقادة وأنهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة (المقريزي، ١٢٧٠: ١٧٧). وهم أهل فن يقبلون على الحياة ويحبون الاستمتاع بأطايبها ويحبون السفر ويألفون الغريب والمسافر ويكرمونه. ويتجلى ذلك في قول ابن بسام عنهم: «وقد كثر طرب نفوس أهلها وفرحهم ورغبتهم في مداومة اللذات واستماع الأغاني ومواصلة المسرات والرغبة في الراحة واطراح ما يوجب التعب والمشقة والحب للنقش والصورة والرقم والتلوين بالأصباغ وعلى قلة الضجر في السفر وترك المخالفة لمن يصاحبون وكثرة المبالغة لمن يألفون وحُسن المؤازرة لمن يستخدمهم ومحبتهم للغرباء والمسافرين والمواظبة على مسرتهم وسرورهم ومتعتهم وتركهم للحسد لمن يحبون والعتب على زلته ويمدحونه ويفضلونه ويلومون أنفسهم في التقصير عن أخطائه وما يستحقه والقيام بذلك» (ابن بسام: ١٨٨ - ١٨٩).

وروى المقريزي أن طبائع أهل تنيس مائلة الى الرطوبة والأنوثة، وأورد أن أبا السرى الطبيب ذكر أنه كان يولد بها في كل سنة مائتا مخنث. وأن أكثر أهل تنيس يبيتون سكارى. وأنهم قليلو الرياضة لضيق بلدهم وأن أبدانهم ممتلئة الأخلاط. وأنه

حصل بها مرض يُقال له الفواق التنيسي أقام بأهلها ثلاثين سنة (المقريزي ، ١٢٧٠ هـ : ١٧٧) .

وامتدح ابن دقماق أهل تنيس بقوله عنهم انهم سادة المرابطين (ابن دقماق ، ١٨٩٣ : ٧٨) وأطول أهل مصر أعماراً ، وهم أذكى الناس صغاراً وأوظبهم على فعل الخير كباراً . بلدهم مخصوصة برقة الهواء وقلة الغبار ونضارة وجوه أهلها وحسن زيهم ولطافة صناعتهم .

علماء تنيس :

ولقد خرَّجت تنيس جماعة من الفضلاء والعلماء والمحدثين والأدباء . وحُكي عن يوسف بن صبيح أنه رأى بها خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث (القزويني ، ١٩٦٠ : ١٧٧) ، وأنه دعاهم سرّاً الى بعض جزائرها وعمل لهم طعاماً يكفيهم فتسامع الناس فجاءه من العالم ما لا يُحصى عدده ، وقد كفى ذلك الطعام الجماعة كلهم وفضُل منه (ياقوت ، ١٩٥٦ : ٥١) .

ومن العلماء والمحدثين الذين ينتسبون الى تنيس وورد ذكرهم في مخطوطة تاريخ علماء أهل مصر لابن الطحان[٢٨] :

- ابراهيم بن يوسف بن يعقوب بن صبح التنيسي ، ويُكنى أبو اسحق ، وهو من المحدثين الذين حدثوا عن عبد الجبار بن أحمد السمرقندي[٢٩] .
- أبو زكريا بن يحيى بن أبي حسان التنيسي الشامي ، وأصله من دمشق وسكن تنيس وعُرف بابن النحاس . وكان مولده في سادس ذي القعدة سنة ٤٠٤ هـ ووفاته بتنيس سنة ٤٦١ هـ أو ٤٦٢ (ياقوت ، ١٩٥٦ : ٥٤) .
- أحمد بن كردوس بن مسعود بن كردوس التنيسي أبو جعفر ، وهو من المحدثين ، روى عن بكر بن سهل وغيره . تُوفي سنة ٤٣٩ هـ (ابن الطحان ، ورقة ٢٢٤) .
- اسحق بن ابراهيم بن أحمد بن عطية الأسدي أبو يعقوب ، المشهور بابن الحداد التنيسي وهو أخو أبي بكر ، أبوه بغدادي ومولده بتنيس وهو من كبار المحدثين (ابن الطحان ، ورقة ٢٣٦) .

- حراش بن محمد الجوشني التنيسي أبو المقاتل.
- الحسن بن كثير بن يحيى بن عيسى النهمي التنيسي أبو علي، وهو محدث يروي عن أحمد بن شيبان.
- الحسن بن بدر التنيسي، مُحدث توفي في جمادى الآخرة سنة ٢٨٠ هـ.
- الحسن بن علي بن أحمد بن وكيع بن خلف الشاعر أبو محمد، وأصله بغدادي ومولده بتنيس. ولقد أورد ابن الطحان أنه سمع الحديث عنه.
- الحسين بن أيوب بن سليمان التنيسي أبو علي، وهو من المحدثين.
- ذكوان بن الحسين بن محمد بن عبيد بن مروان التنيسي، ويُكنى أبا زيد، وهو محدث يروي عن السمرقندي عثمان وغيره وكان معاصراً لابن الطحان. وذكر ابن الطحان أنه كتب اليه بخطه يخبره حديثاً لعلي بن جعفر بن أحمد القرماني ويورد أن نسبة هذا الحديث تنتهي الى أبي هريرة (رضي الله عنه)، ويقول هذا الحديث: قال رسول الله ﷺ «اللهم بارك لأمتي في بكورها».
- عبيد الله بن الحسين بن جابر التنيسي أبو القاسم.
- محمد بن علي بن الحسين بن أحمد أبو بكر التنيسي المعروف بالنقاش. درس بدمشق وحدَّث بتنيس وروى عنه الدارقطني وغيره. توفي سنة ٣٦٩ هـ في شهر رمضان وكان مولده في رمضان من سنة ٢٨٢ هـ (ياقوت، ١٩٥٦ : ٥٤).
- الموفق بن أبي الكرم التنيسي، وهو عالم محدث، تُوفي سنة ٦٠٨ هـ في عهد الملك العادل الأيوبي (المقريزي، ١٩٥٦ : ١٧٥).

قضاة تنيس:

ومن قضاة تنيس الذين تولوا القضاء بها وأورد الكندي ذكرهم:

- القاضي الشريف المعروف بالعقيقي، ولي القضاء بتنيس وكان من العلماء وتوفي بها في المحرم سنة ٤٢٤ هـ (الكندي، ١٩٠٨ : ٤٩٨).
- القاضي أبو بكر أحمد بن عبيد الله بن محمد بن اسحق، ولي قضاء تنيس وسار اليها يوم السبت سادس عشر صفر ودخل اليها يوم الأحد (لم يورد الكندي سنة وصوله تنيس)، وقرىء سجله وحكم بين أهلها واستخلف ولده بدمياط وحصل له

القضاء بتنيس وسائر اعمالها.

● القاضي علي بن النعمان بن حيون، وقد استخلف أخاه محمداً على تنيس والفرما وغيرها في القضاء (الكندي، ١٩٠٨ : ٥٩٠).

تدهور أحوال تنيس:

بدأت أحوال تنيس في التدهور منذ أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس. وجاء هذا التدهور نتيجة عاملين: أولهما تدهور أحوال صناعتها وتقلص انتاجها من النسيج، وثانيهما تعرضها المستمر لخطر الهجوم الصليبي في ذلك الوقت (Wiet 1937).

أما عن العامل الأول فيزعم بعض المؤرخين المسلمين (ابن حوقل، ابن دقماق، المقريزي) أن سبب تدهور صناعة نسيج تنيس يرجع الى ما عمله وزير فاطمي واحد هو الوزير يعقوب بن كلس، الذي كان يهودياً ثم أسلم، وأصبح وزيراً للخليفة الفاطمي العزيز بالله[٣٠]. ولم يكن تدهور الصناعة في تنيس، بطبيعة الحال، من عمل وزير واحد بل كان نتيجة للسياسة المالية والاقتصادية السيئة التي سار عليها بعض ولاة مصر واستمرت زمن ابن طولون ومن تلاه على حكم مصر.

وكانت هذه السياسة المالية تستهدف جمع المال من أهل الأمصار دون تقديم خدمات في مقابل هذا المال المجموع[٣١]. وكان هذا المال يُجمع في العادة من الفئات العاملة من زراع وصناع وتجار، وكلما تقدم الزمن زاد العبء الملقى على عواتق أولئك الناس. ويصل الأمر الى درجة يصبح العمل فيه مضرة لأهله لأنه يجعلهم هدف جباة الضرائب وهنا يهجر المزارع أرضه والصانع مصنعه ويحول التاجر تجارته الى نوع من التجارة المستورة (مؤنس، ١٩٧٨ : ٥١).

ولقد ظهرت آثار هذه السياسة المالية الاقتصادية السيئة التي كان يتبعها ولاة مصر بوضوح، في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، على عهد تولي ابن كلس الوزارة للخليفة الفاطمي العزيز بالله. وكان من الطبيعي أن يتأثر ويتقلص انتاج تنيس الصناعي نتيجة لهذه السياسة المجحفة. وتردد صدى ذلك التقلص في الانتاج في تقلص الكمية المصدرة من نسيج تنيس الى الخارج وبخاصة الى العراق. يقول ابن

حوقل (ص١٤٣): «كان الحِمل على عهدنا يبلغ من عشرين ألف دينار الى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق فانقطع ذلك بالمغاربة وخص بقطعه اللعين أبو الفرج بن كلس وزير العزيز فانه استأصل ذلك بالنوائب والكلف والمغارم والسخر الدائمة للضياع حتى لجعل جزية على جميع الداخلين والخارجين الى تنيس».

ولقد أدى تعرض تنيس لخطر الهجوم الأجنبي الخارجي الى تعطل الانتاج وانشغال أهل المدينة بالدفاع عنها ضد الخطر المحدق بها، مما أدى الى تدهور أحوالها وأثر على عجلة انتاجها. ولقد ساعد موقع تنيس على سرعة هذا التدهور وذلك لبعدها عن المعمور المصري، بالدلتا وموقعها الجزري وقلة امكانياتها الاقتصادية والبشرية عند وقوع الحرب أو الحصار (الشامي، ١٩٧٧: ٤٢٩).

ولقد تعرضت تنيس، بحكم موقعها الاستراتيجي الهام على البحر المتوسط وبحكم مواجهتها لبلاد الروم والفرنج، لهجمات مستمرة متقطعة قام بها الروم والصليبيون عليها بهدف اسقاطها واحتلالها بحكم أنها خط دفاع مصر الاسلامية الأول.

وكانت تنيس تتصدى لهذه الغارات ببسالة وتحبطها باستمرار[٣٢]. لكن لمّا زاد الهجوم عليها عجزت في النهاية عن الصمود أمام هذه الهجمات الضارية فسقطت مهيضة تعلق جراحها، وكان في هذه الهجمات دمارها وكانت فيها نهايتها.

هجوم الروم والصليبيين على تنيس:

ولقد بدأ هجوم الروم (البيزنطيين) على سواحل مصر الشمالية عموماً، وعلى مدينة تنيس خصوصاً، مع مطلع القرن الثاني الهجري. وقد أورد ياقوت أن الروم هاجموا تنيس في رمضان سنة ١٠١ هـ في عهد ولاية بشر بن صفوان الكلبي على مصر من قبل الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك وأنهم نزلوا بها في هذا العام وقتلوا أميرها مزاحم بن مسلمة المرادي في جمع من الموالي، وفيهم يقول الشاعر:

ألم ترجع فيخبرك الرجال بما لاقى في تنيس الموالي

(المقريزي، ١٢٧٠ هـ: ١٧٧).

وذكر الكندي (ص٢٠١) أن الفرنج هاجموا تنيس ودمياط سنة ٢٣٨ هـ أيام

ولاية عنبسة بن إسحق الضبي عليها من قبل الخليفة المتوكل العباسي. وأضاف بأن الفرنج تملكوا أول الأمر مدينة دمياط وما فيها وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة. (الكندي، ١٩٠٨ : ٢٠١). لكن عنبسة بن إسحق نفر إليهم في جيش كبير فمضى الروم من دمياط إلى تنيس وأقاموا بأشتومها. وتمهل عنبسة ولم يتبعهم واستمر بقاؤهم بتنيس مدة الأمر الذي دعى يحيى بن الفضل أن يخاطب الخليفة المتوكل في أمر إخراجهم من تنيس قائلاً:

أترضى أن توطـــا حريمـــك عنوة ... وأن يُستبـــــاح المسلمون ويُحرَبوا
حمار أتـــى دميـــاط والروم وُثـــبٌ ... بتنيس منـــه رأى العـــين وأقربُ
مقيمون بالأشتوم يبغون مثـل مـا ... أصابوه من دمياط والحرب ترتُب
فـلا تنسنـــا إنـــا بـــدارٍ مضيعـــة ... بمصر وأن الدين قد كـاد يذهبُ

وتبعاً لذلك أرسل المتوكل جيشاً لملاحقة الروم بتنيس، لكن الروم، حين سمعوا بأمر الجيش، خرجوا من تنيس إلى الفرما ومنها عائدين إلى بلادهم (الكندي، ١٩٠٨ : ٢٠٢ - ٢٠٣).

وأورد المقريزي أن مراكباً من صقلية محملة بجند الروم وصلت إلى مدينة تنيس سنة ٣٤٨ هـ وعادت عنها بعد أن نهبتها (المقريزي، ١٢٧٠ هـ، ص١٨٠).

ولقد ازداد هجوم الصليبيين على تنيس مع مطلع القرن السادس الهجري، حين وضع هؤلاء الصليبيون نصب أعينهم مهاجمة مصر ومحاولة القضاء على دولة الإسلام بها.

وقد قام الملك الصليبي بلدوين الأول، أخو جودفري دي بوايون، أول حكام الدولة الصليبية في بيت المقدس وخليفته عليها، بمهاجمة مصر أيام حكم الفاطميين لها ودخل تنيس سنة ٥١٢ هـ/١١١٦ م (عاشور، ١٩٦٣ : ٣٢٩ - ٩٦٣)، (Stanley, 1900). على أن بلدوين هذا لم يمض الى أبعد من تنيس وذلك لصغر قوته أولاً ثم بسبب مرضه ثانياً(٣٢).

ولم تستطع حامية تنيس العسكرية، التي كانت تقيم بها لصد غارات الروم والفرنج والسفن الحكومية الفاطمية التي كانت تحرس شواطئها، من أن تتصدى لهذا

الهجوم. وكان ناصري خسرو قد ذكر بصدد هذه الحماية ما نصه «أن الجزيرة التي كانت تنيس مبنية فوقها كان يحيط بها كثير من سفن الحكومة الفاطمية كما كانت تقيم بها حامية عسكرية لصد غارات الروم والفرنج».

كذلك قام عموري الأول، ملك بيت المقدس، بالهجوم على مدينة تنيس سنة ٥٦٤ هـ بغية التقدم منها صوب القاهرة، وذلك في فترة الصراع الشهيرة بين الوزيرين الفاطميين شاور وضرغام على الوزارة (٥٥٧ - ٥٦٤ هـ /١١٦١ - ١١٦٨ م) (رونسيمان، ١٩٦٨، ص٦١٦).

ولقد هددت هجمات الصليبيين تنيس بداية حكم الأيوبيين لها بعد خراب الفرما. وقد بذل السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي جهوداً كبيرة في الدفاع عن المدينة وحمايتها. ففي سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥ م وصل إلى تنيس من شواطىء صقلية نحو أربعين مركباً فحصروها يومين ثم أقلعوا. كذلك وصلها في سنة ٥٧٣ هـ/١١٧٧ م نحو أربعين مركباً أخرى وقاتلوا أهلها حتى ملكوها، فتقدم محمد بن إسحق قائد الأسطول المصري لتخليصها من يد الغزاة. ويورد المقريزي قصة صد هذا الهجوم قائلاً: «وكان محمد بن إسحق صاحب الأسطول قد حيل بينه وبين مراكبه فتجهز في طائفة من المسلمين إلى مصلى تنيس، فلما تجهم الليل هجم بمن معه في البلد على الفرنج وهم في غفلة فأخذ منهم مائة وعشرين فقطع رؤوسهم فأصبح الفرنج إلى المصلى وقاتلوا من بها من المسلمين فقُتل من المسلمين نحو السبعين. وسار من بقي إلى دمياط ومال الفرنج على تنيس فألقوا فيها النار وأحرقوها وساروا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى إلى جهة الإسكندرية بعد أن أقاموا بتنيس أربعة أيام» (المقريزي، ١٢٧٠ هـ: ١٨٠).

ويضيف المقريزي أن فرنج عسقلان أغاروا في سنة ٥٧٦ هـ، في عشر حراريق، على أعمال تنيس في عهد ولاية الملك العادل من قبل أخيه الناصر صلاح الدين، وذلك وقت أن سار صلاح الدين إلى الشام. لكن أهالي تنيس استطاعوا أن يصدوا غاراتهم ويقضوا على حراريقهم.

وفي ربيع الأول من سنة ٥٧٧ هـ/١١٨٠ م طرق الفرنج ساحل تنيس وأخذوا مركباً للتجار كانت راسية في مينائها (المقريزي، ١٩٥٦: ٧٢). وفي هذا العام

ازداد ، في بحر تنيس ، تعدي العربان على المراكب ، « وسارت لحربهم حراريق ولكنها لم تظفر بهم لإيوائهم إلى الهيش » (المقريزي ، ١٩٥٦ : ٧٤).

عمارة قلعة وسور تنيس وإخلاء المدينة من سكانها :

وفي هذا العام (٥٧٧ هـ) قام السلطان صلاح الدين بعمارة قلعة وسور تنيس وتجديد ما بها من آلات ، وذلك عندما اشتد خوف أهل تنيس من الإقامة بها . فقدر لعمارة قلعتها وسورها القديم على أساساته الباقية ثلاثة آلاف دينار (المقريزي ، ١٩٥٦ : ٧٤).

وفي سنة ٥٨٨ هـ/١١٩١ م ، وقبل موته بعام واحد ، أمر السلطان صلاح الدين ، مضطراً ، بإخلاء تنيس من سكانها بسبب ازدياد هجمات الصليبيين عليها والخوف على أهلها من الوقوع في يد الأعداء (المقريزي ، ١٢٧٠ هـ : ١٨١). وكان إخلاء المدن أمام هجوم الأعداء وتجريدها من كل ما يُستفاد منه سياسة عسكرية دفاعية سار عليها حكام الأيوبيين ، وذلك حسب قول المقريزي : « لعجز الملوك عن ممانعة الفرنج بالسلاح واضطرارهم لهدم المدن وتعفية رسومها »[٣٤].

وبناءً على أمر السلطان الصادر في هذا العام بإجلاء المدينة ونقل أهلها إلى دمياط ، تم الإخلاء في شهر صفر من الذراري والأثقال ولم يبق بها سوى المقاتلة في قلعتها (المقريزي ، ١٩٥٦ ، ص١١١).

تخريب تنيس ونهاية أمرها :

وازداد الهجوم الصليبي على سواحل مصر الشمالية مع مطلع القرن السابع الهجري (١٣ م). وجهز الصليبيون حملتهم الخامسة ، وكان الهدف منها إسقاط مصر والاستيلاء على مدنها بعد أن أدرك الصليبيون أن لا نجاح لحملاتهم الصليبية دون إسقاط مصر. ووصلت السفن الصليبية سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م إلى مصب فرع دمياط مستهدفةً ثغر دمياط بقيادة حنا دي بريين. وتمكن الصليبيون ، بعد تسعة أشهر من حصارهم لدمياط ، من أن يسقطوها في أيديهم (عاشور ، ١٩٦٣ : ٩٧٧). وأصبح الخطر يتهدد تنيس بعد سقوط دمياط في يد الصليبيين. ولذلك وبسبب إدراك

حكام الأيوبيين استحالة الدفاع عن المدينة قرروا حرقها وهدمها وتخريب قلعتها ودفاعاتها ومنشآتها حتى لا ينزل الصليبيون بها ويحتلوها ويستفيدوا بما فيها (ابن دقماق ، ١٨٩٣ : ٧٩).

وتجمُع المصادر على أن السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب (سادس حكام الأيوبيين) هو الذي أمر بهدم مدينة تنيس وتخريبها ، وذلك في شهر شوال من سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٦ م. يقول المقريزي : « فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكينة ولم يكن بديار مصر أحسن منها واستمرت من حينئذٍ خراباً » (المقريزي ، ١٩٥٦ : ٢٢٤). « ولم يبق من المدينة إلا رسومها في وسط البحيرة ». « وبقي بعض من أهلها ينزلون في أخصاص بها ، وظلت تنيس كذلك إلى أن طمها البحر » (شيخ الربوة ، ١٩٢٣ : ٢٣١). « وهي الآن خراب دائر » (ابن دقماق ، ١٨٩٣ : ٧٨). ويضيف المقريزي وصفه لنهاية تنيس بقوله إن المدينة قد أغرقتها مياه البحر ولم يبق منها إلا أطلالها التي عُرفت باسم تل تنيس ، وأنه لم يبق ، على أيامه ، في وسط البحيرة سوى عدة جزائر كانت تُعرف باسم العِزب يسكنها طائفة من الصيادين وفي بعضها ملاحات يؤخذ منها ملح عذب لذيذ[٣٦].

ولقد صمتت المصادر قروناً عن الحديث عن تنيس بعد أن واجهت مصيرها التعيس. ولم يتجدد الحديث عنها إلا حين أشار إلى أطلالها الرحالة الأجانب الذين قاموا بزيارة أطلالها منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. ومن هؤلاء الرحالة الأجانب الذين مروا بها وتحدثوا عن أطلالها الرحالة الإيطالي فرانيكولو كورتبزو الذي مر بأطلالها سنة ١٣٤٥ م وأشار إلى ما تبقى من المدينة متمثلاً في بقايا قلعتها. كذلك تحدث عن بقايا المدينة في كتاب رحلته الرحالة جلبرت لانوي J. de Lannoy (الشيال ، ١٩٦٧ : ١٨٠ ـ ١٨١).

وقد بقيت بقايا تنيس عرضة لنهب صيادي بحيرة المنزلة من سكان القرى الأخرى المطلة على هذه البحيرة مثل المطرية والمنزلة وغيرهما[٣٧] ، وقاموا بنقل معظم أنقاضها واستخدموه في بناء منازلهم حتى انهم لم يُبقوا من هذه الأنقاض سوى بعض صهاريج المياه[٣٨].

وهكذا طمست معالم هذه المدينة العظيمة وتقلص ذكرها وباتت خبراً بعد عين

بعد أن كانت ملء سمع الدنيا وبصرها ، ولم يبق منها سوى بقايا أطلالها تقف شاهداً على ماضيها الزاخر ومجدها الغابر .

فسبحان من له الدوام .

الهوامش

(١) أورد محمد رمزي (القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص١٩٨) أنه تبين بالبحث له أن الجزيرة التي كانت تقع تنيس عليها لا تزال موجودة الى اليوم ببحيرة المنزلة وأن بها بعض بقايا من الطوب المتخلف من مبانيها القديمة ، وأن موقع المدينة القديمة قد جاء في الخريطة الكبيرة التي وضعتها مصلحة المساحة كان على خط عرض ٣١° ٣٠َ شمالاً .

(٢) امتازت تنيس بالتوسط بين موانىء مصر الشمالية الشرقية في العصور الوسطى ، فالى الشرق منها ميناء الفرما ثم بديله الطينة ، وفي الغرب كانت دمياط أهم وموانى مصر الشمالية . وقد اكسبها هذا التوسط دوراً هاماً في تجارة مصر الخارجية فصارت أهم الموانى المصرية المرتبطة بالموانى الشامية وموانى الدولة البيزنطية (الشامي ، ١٩٧٧ : ٤٠٣) . ٤٠٣) .

(٣) كان وضع تنيس الاداري في اطار مصر الاسلامية كما ورد عند ابن دقماق وأبي صالح الأرمني والمقريزي يتمثل في أنها كانت ودمياط كورتين من كور أسفل الأرض (الدلتا) الخمس والعشرين تتبعان الأعمال الأبوانية حتى بداية حكم الفاطميين لمصر . أما في العصر الفاطمي والأيوبي فكانت تتبع ولاية الغربية وهي واحدة من أربع ولايات كانت مصر تنقسم اليها ادارياً ، وهي ولايات : قوص والشرقية والغربية والاسكندرية (ابن دقماق ، ١٨٩٣ : ٧٨ ، المقريزي ، ١٢٧٠ هـ : ١٢٩ ، القلقشندي ، ١٩١٥ : ٤٩٨) .

(٤) مساحة بحيرة المنزلة الحالية ١٦٣٠ كم٢ يفصلها عن البحر المتوسط شريط رملي ضيق تقوم على طرفه مدينة بورسعيد الحالية ويربطها بالبحر فتحة أشتوم الجميل . وتكثر بهذه الجزيرة الجزر والخلجان ، وأصبح كثير من المدن التي كانت على ساحلها أطلالاً تقوم على جزرها . وأدى حفر قناة السويس الى فصل مساحة كبيرة من البحيرة أصبحت جافة وتُعرف باسم سهل الطينة الذي يمتد لمسافة ٤٥ كم شرقي القناة فيما بين القنطرة شرق وبور

فؤاد (الموسوعة العربية الميسرة ، ١٩٦٥ : ١٧٥٣).

(٥) حدثنا ابن حوقل (صورة الأرض : ١٤٦) عن بحيرة تنيس بقوله : « هي بحيرة في شمال الفرما وتتصل ببحر الروم وفيها مدن كالجزائر فيها يطيف ماء البحيرة بها ولا طريق اليها الا في السفن . ومن أجل جزرها تنيس ودمياط ودميرة ودبقوا وشطا وتونه وهي قليلة العمق يُسار في اكثرها بالمرادي » . وحدثنا أبو الفداء (تقويم البلدان ، ١٨٥٠ : ١١٩) أن مقدار البحيرة اقلاع يوم في عرض نصف يوم ، وأنه كان في مكانها بر مسلوك تغلب عليه البحر في ليلة واحدة فما كانت أرضه منخفضة غرق وما كانت أرضه عالية مثل تنيس وتونه بقي » .

(٦) اتفق المقريزي فيما قاله مع ما ورد بهذا الخصوص على لسان كل من القلقشندي والنويري (القلقشندي ، ١٩١٥ : ٣٨٤ ، النويري : ٢٥٢).

(٧) أورد النويري (جـ ١ : ٢٥٢) تفسير التقرير الذي ورد في القرآن الكريم عن أرض هذين الرجلين التي كانت بتنيس بقوله : « قال ابراهيم بن وصيف شاه في كتاب العجائب الكبير أن أرض تنيس كانت خصبة بسبب أن مكان بحيرة تنيس قبل ان تغرق كانت جنات وكروماً ومنازل ومتنزهات وانها كانت مقسومة بين ملكين من ولد أتريب بن مصر وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً فأنفق المؤمن ماله في وجوه الخير حتى باع حقه من أخيه وفرق مالها أيضاً فأصلحها أخوه وزاد فيها غروساً وفجر فيها أنهاراً وبنى فيها بنياناً . واحتاج أخوه الى ما في يده فكان يمنعه ويفتخر عليه بما في يده من المال والأجنة . فخاطبه أخوه في بعض الأيام فسطا عليه وقال : « أنا أكثر منك مالاً وولداً وخيراً » . فقال له أخوه : « فما أراك شاكراً لله تعالى على ما رزقك ويوشك ان ينزع ذلك منك » . ويُقال انه دعا عليه فغرق ماء البحر ما كان له في ليلة واحدة . وقيل أن هذين اللذين ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز بقوله : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين » .

(٨) أُلف في مدينة تنيس كتابان : الأول في فضائلها من تأليف أبي القاسم عبدالمحسن بن عثمان ابن غنائم الخطيب ، ألفه في الربع الأول من القرن الخامس الهجري تحت عنوان : « العروس في فضائل تنيس » وهو من الكتب المفقودة وانفرد السخاوي بذكره في كتابه « الاعلان بالتوبيخ » . والكتاب الثاني وهو بعنوان : « أنيس الجليس في أخبار مدينة تنيس » ، وهو من تأليف محمد بن شهاب الدين أحمد المعروف بابن بسام المحتسب التنيسي وهو من أبناء وعلماء تنيس ، عاش في أواخر القرن السادس الهجري وأوائل السابع . والكتاب جزء من مخطوطة موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٥٢ أدب بعنوان « فوائد الموائد » تشغل سيرة تنيس ثمان صفحات منها قام بتحقيقها المرحوم الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الشيال في مجلة المجمع العلمي العراقي ، العدد ١٤ السنة ١٩٦٧

وحوت هذه الصفحات على وصف غير كامل للمدينة أيام ازدهارها أفادنا كثيراً في بحثنا هذا .

(٩) يحتاج أصل تسمية المدينة الى الرجوع الى مصادر مصر اليونانية والبيزنطية القديمة وهذا ما سوف نعالجه باذن الله في بحث مقبل .

(١٠) لم يناقش من كتبوا عن تنيس في الأبحاث الحديثة سر تسمية المدينة بهذا الاسم واكتفوا بما وجدوه عنها في المصادر الاسلامية ، ومن هؤلاء الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر أو مروا بها مثل فرانيكولو داكورتبزو ، وجلبرت دي لانوي ، وباتروكلوا ، ونقولا يوسف . كذلك لم يناقش محمد رمزي هذه التسمية في قاموسه الجغرافي .

(١١) ذكر القزويني كل أسماء هذه الطيور في كتابه آثار البلاد (القزويني ، ١٩٦٠) نقلاً عن ياقوت ، كذلك أورد هو وياقوت أسماء كل أسماك تنيس .

(١٢) وهو الشهر الخامس من شهور مصر القبطية الشتوية وهو يقابل شهر يناير (كانون الثاني) ، ويكون فيه الغُطاس .

(١٣) قام النزاع بين الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية العهد . فقد كان الخليفة هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون على أن يلي الأمين العراق والشام الى آخر المغرب ويلي المأمون من همدان إلى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه . ولكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته في تنفيذ عهد والده فخلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه موسى وقامت بسبب ذلك الحروب بين الأخوين منذ سنة ١٩٥ هـ ، وانتهت بحصار جيش المأمون بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ . وكانت مدة خلافة الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ) ، او بعبارة أصح فترة النزاع بين الأخوين المتصارعين على عرش الخلافة العباسي ، كانت فترة اضطراب عمت الدولة الاسلامية كلها ، وقد شملت هذه الفوضى مصر أيضاً فتحزب فريق للأمين بينما تحزب فريق آخر للمأمون .

(١٤) امتدت امارة الجرويين من الفرما شرقاً الى فرع رشيد غرباً ومن بلبيس جنوباً حتى ساحل مصر الشمالي وشمل في بعض الأحيان الاسكندرية غرباً وامتد حتى الفسطاط جنوباً .

(١٥) الجرويّ : نسبة الى بني جرْو وهم بطن من جذام نزلوا الفرما واختلطوا بقبيلة لخم التي كانت تسكن شمال سيناء وشمال شرق الدلتا .

(١٦) خرجت الاسكندرية عن سلطة والي مصر منذ ولاية عباد بن محمد بن حيان (١٩٦ ـ ١٩٨ هـ) . ولمّا وُلّي المطلب بن عبدالله مصر من قِبل المأمون سنة ١٩٨ هـ وُلي على الاسكندرية حديج بن عبدالواحد الذي ثار ضده بنو مدلج بالاسكندرية . وفي ولاية المطلب الثانية (١٩٩ ـ ٢٠٠ هـ) ولى الجند على الاسكندرية محمد بن هبيرة بن هاشم

الذي يُعرف باسم عمر بن هلال فوليها مدة ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب وولّى عليها الفضل ابن عبدالله. وقام ابن الجرويّ بتحريض ابن هلال بعصيان أمر الوالي واستمراره في ولاية الاسكندرية وطرد الفضل عنها والدعاء لابن الجروي بها (الكندي، ١٩٠٨ - ١٥٩).

(١٧) رست في تلك الاثناء في ميناء الاسكندرية مراكب قادمة من الأندلس عليها جنود اندلسيون مطرودين من وطنهم وعددهم ١٥ ألف جندي عدا النساء والأطفال وذلك في عهد أميرهم الحكم بن هشام الأموي على أثر وقعة الربض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨ هـ (كاشف، ١٩٧٠: ١٤٩ - ١٥٠).

(١٨) كان السّري بن الحكم قد طمع في أن يكون صاحب السلطة الفعلية في مصر كلها وأراد التخلص من الجروي حتى يصفو الأمر له، ومن ثم تطورت المنافسة الخفية بين الجروي والسري الى نزاع علني بينهما. وبعد ان كان الجروي والسري يحاربان لأجل الخليفة المأمون اصبح كل منهما يحارب الآخر، وأدى هذا الى استمرار النزاع بينهما واتصاله في السنين التالية؛ بل ان هذا النزاع توارثه أبناؤهما بعد وفاتهما كما سوف نرى.

(١٩) سار الجروي لحصار الاسكندرية سنة ٢٠٣ هـ حين قام جنودها باخراج عامله عنها ودعوا للسري، فنصب عليها المنجنيقات وأقام على ذلك سبعة أشهر ولكن حجراً من منجنيقه أصابه أثناء الحصار فمات في سلخ صفر سنة ٢٠٥ هـ، ومات السري بعده بثلاثة أشهر (الكندي، ١٩٠٨، ص١٧٠).

(٢٠) يُعد الرحالة الفارسي ناصري خسرو أهم شاهد على ازدهار المدينة فيما ذكره عنها في كتاب رحلته «سفرنامة» أثناء زيارته لمصر في أيام حكم الفاطميين لها (ناصري خسرو، ١٩٧٠: ٧٩).

(٢١) الطراز كلمة معربة من فعل «ترازيدن» الفارسي بمعنى أن يُوشي. وقد استخدمت لفظة الطراز عموماً لتدل على العبارة الرسمية التي كانت تنقش على النسيج أو العملة أو غير ذلك من الأشياء ذات الطابع الرسمي اذ جرت العادة ان تتخذ كل دولة لنفسها طرازاً أو عبارة متميزة كشعار خاص بها. ونظراً الى ان اكثر المواد التي كان يرد الطراز عليها هو النسيج الذي كانت تُعمل منه الثياب التي كانت يخلعها الخلفاء على رجال الدولة ويهدونها لهم من باب التشريف وعلامة على رضاهم عنهم واقرارهم في مناصبهم صارت دور النسيج أو مصانع النسيج تُسمى بالطراز وصار المشرف على هذه الدور يُسمى صاحب الطراز (الباشا، ١٩٧٥: ١٧٤).

(٢٢) لسنا نعرف مدى سلطان صاحب الطراز في العصر الطولوني ولكنا نستطيع ان نتصوره مما نعرفه عن حاله في العصرين الفاطمي والمملوكي حين كان صاحب الطراز أعلى

الموظفين مقاماً وأحسنهم راتباً وأوسعهم سلطاناً ، وكان له مساعدون في مصانع النسيج بالبلاد المصرية كلها ، كما كان له مقر رسمي في العاصمة ومراكب يتنقل بها في النيل. وكان يعاون صاحب الطراز في الاشراف على المصانع في كل إقليم من أقاليم مصر في صدر الاسلام موظف يسمى « المتوكل بطراز الاقليم » كما يتبين ذلك من وثيقة بردية في دار الكتب المصرية نشرها الأستاذ جرومان وترجع الى القرن الثالث الهجري وقد جاء فيها : « قبض حسين بن يحنس بن رماح بن يوسف المتوكل بطراز أشمون وانصنى » (كاشف ، ١٩٦٥ : ١٨٦).

(٢٣) يقصد شطا ودبيق وهما مركزان صناعيان هامان ، وعُرفت صناعة شطا بالثياب الشطوية ، بينما اطلق اسم دبيق على نوع خاص من النسيج اختصت به عُرف بالدبيقي ، وكانت مادة هذا النسيج من الكتان الرفيع المخلوط بالذهب والحرير وكانت له شهرة فائقة في عالم العصور الوسطى.

(٢٤) ذكر ابن الداية مثلاً أنه بعد أن عُزل المفضل الذي كان ناظراً على قصر ابن طولون أُمر ببيع ملابسه وبعض أشياء كانت ملكاً له فبلغ ثمنها ٢٠ ألف دينار (كاشف ، ١٩٦٥ : ٢٠٢).

(٢٥) حفظ الفاكهي مؤرخ مكة نص نقش طراز على كسوة الكعبة كان الخليفة الرشيد قد أمر بصنعها على طراز شطا سنة ١٩١ هـ. وجاء في النص الآتي : « بسم الله ـ بركة من الله لعبدالله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته في طراز شطا كسوة الكعبة سنة احدى وتسعين ومائة » (المقريزي ، ١٢٧٠ هـ : ٢٢٦).

(٢٦) صاحب كتاب « العروس في فضائل تنيس » ، وهو من الكتب المفقودة التي انفرد السخاوي بذكرها في كتابه « الاعلان بالتوبيخ ».

(٢٧) من المؤكد ان النصارى استعادوا بعض هذه الكنائس أو بنوا عوضاً عنها منذ أواخر أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بسبب وجود عدد كبير من النصارى بالمدينة ظلوا على دينهم ، فضلاً عن رد الحاكم كنائس النصارى اليهم وسماحه لهم باعادة بناء وتعمير ما تهدم منها في أواخر أيامه وفي أيام خليفة العزيز بالله.

(٢٨) هو أبو القاسم يحيى بن علي بن محمد بن ابراهيم الحضرمي المعروف بابن الطحان ، والمتوفى سنة ٤١٦ هـ. والمخطوطة بعنوان تاريخ علماء أهل مصر ، وله مخطوطة مصورة محفوظة بمكتبة جامعة الكويت تحت رقم ٣٤٠ ك مجموع (١٢) تاريخ ، الجزء الأول. مصورة عن نسختها الأصلية بالمكتبة الظاهرية مجموع ٣٨٥٢.

(٢٩) لم يورد ابن الطحان تاريخ وفاته (ابن الطحان ، مخطوطة ، ورقة ٢٢١أ ، ٢٢١ب).

(٣٠) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن هارون بن داود بن كلس اليهودي ، وُلد سنة ٣١٨ هـ

وأسلم في ١٨ شعبان سنة ٣٥٦ هـ وتولى الوزارة مرتين: من سنة ٣٧٣ هـ حتى وفاته سنة ٣٨٠ هـ (زامباور، ١٩٥١ : ١٤٥).

(٣١) ذكر لين بول أنه كان يُحصل يومياً في عهد ابن كلس ضرائب من تنيس ودمياط والأشمونين ٢٠٠ر٠٠٠ دينار (Stanely: 114).

(٣٢) كان لتنيس حصن كبير على البحر، حدد المقريزي تاريخ بنائه سنة ٢٣٩ هـ وهو نفس العام الذي تم فيه بناء حصن كل من دمياط والفرما في أعقاب اغارات الروم على ثغور مصر الشمالية. ثم ذكر المقريزي تجديد هذا الحصن في عصر الأيوبيين سنة ٥٧٧ هـ، وكان المرابطون يستقرون في هذا الحصن. وذكر ناصري خسرو أنه شاهد بتنيس جيشاً كاملاً بالسلاح مقيماً بالمدينة حتى لا يستطيع أحد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها (ناصري خسرو، ١٩٧٠ : ٧٩).

(٣٣) وهو المرض الذي لم يلبث أن تُوفي على أثره قرب العريش في ٢ أبريل ١١١٦ م (٥١٢ هـ)، ونُسب إلى ابن الأثير قوله أن سبب وفاته هو أنه سبح في النيل عند تنيس « فانتقض جرح كان به ». في حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة (عاشور، ١٩٦٣ : ٣٣٠).

(٣٤) يقول المقريزي أنه في سنة ٥٨٧ هـ سار الفرنج في أعداد كبيرة مهاجمين عسقلان فأمر صلاح الدين بتركها وتخريبها في رمضان من نفس العام. ويضيف المقريزي أن تخريب عسقلان قد تجدد في عهد الملك العادل إذ ندب جماعة من القدس لهدم أبراج أسوارها فتلفت، على حد تعبيره، مدينة لا مثيل لها وثغر لا نظير له في الثغور وعمارة لا تخلف الأيام ما تلف بها لعجز الملوك عن ممانعة الفرنج بالسلاح واضطرارهم لهدم المدن وتعفية رسومها. (المقريزي، ١٩٥٦، ١٠٥، ١٤١ - ١٤٢).

(٣٥) اتفقت على هذا الرأي مصادر عدة وهي: (شيخ الربوة، ١٩٢٣ : ٢٣١، ابن دقماق: ٧٩، المقريزي، ١٢٧٠ هـ: ١٨١).

(٣٦) توجد الآن ضمن هذه الجزائر قرية صغيرة يسكنها الصيادون تُسمى الشيخ شطا، وهي بقايا مدينة شطا تحيط أكواخ سكانها بمسجد يضم ضريح بطل الفتح العربي الشيخ شطا الذي يبجله أهل القرية ويحتفلون كل عام بمولده (دائرة المعارف الإسلامية، مادة شطا: ٢٨٩ : ٢٩٠).

(٣٧) قامت مصلحة حفظ الآثار العربية في مارس ١٩١٠ بإرسال مهندس ايطالي لزيارة أطلال تنيس فكتب في تقريره أنه لم يتبق من أطلال هذه المدينة شيءٌ له أهمية.

(٣٨) آخر من زار أنقاض تنيس الأستاذ نقولا يوسف أحد أبناء دمياط على أثر قيامه بجولة في بحيرة المنزلة سنة ١٩٥٣. وكتب أنه لم يتبق من آثار وانقاض تنيس شيء وذلك

نتيجة لحركة السلب الكبرى التي تعرضت لها من قبل سكان مدينة المطرية على أثر الحريق الهائل الذي تعرضت له قريتهم سنة ١٩٠٧ (الشيال : ١٨١).

ولقد تجددت أعمال الحفر عن أنقاض مدينة تنيس في بحيرة المنزلة في هذه الأيام ونجحت بعثة مصرية في الوصول إلى أطلال قلب المدينة تحت البحيرة واكتشفت عدداً من الصهاريج الكبرى وعدداً من بقايا الآنيات الفخارية والمعدنية وهي بصدد البحث عن المزيد من المخلفات التي من الممكن أن تضيف لنا جديداً من المعلومات عن هذه المدينة الغارقة في اليمّ.

مصادر البحث

أ ـ المراجع العربية

١ ـ ابن بسام، محمد بن شهاب الدين، أنيس الجليس في أخبار مدينة تنيس، مخطوطة، تحقيق محمد جمال الدين الشيال ـ مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد (١٤) ١٩٦٧.

٢ ـ ابن حوقل، أبو القاسم أحمد، صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨.

٣ ـ ابن دقماق، إبراهيم بن محمد، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ ١، بولاق ١٨٩٣.

٤ ـ ابن الطحان، أبو القاسم يحيى، تاريخ علماء أهل مصر، مخطوطة مصورة بجامعة الكويت، رقم ٣٤٠م ك مجموع (١٢) تاريخ.

٥ ـ الباشا، حسن، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٥.

٦ ـ البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، جـ ١، القاهرة ١٩٥٦.

٧ ـ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، المجلد الثاني، بيروت ١٩٥٦.

٨ ـ الشامي، عبد العال، مدن الدلتا في العصر العربي، القاهرة: جامعة القاهرة (رسالة للدكتوراه لم تنشر)، ١٩٧٧.

٩ ـ القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠.

١٠ ـ القلقشندي، شهاب الدين أحمد، صبح الأعشى في صناعة الانشا، جـ٣، القاهرة ١٩١٥.

١١ ـ الكندي، محمد بن يوسف، الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨.

١٢ ـ المسعودي، أبو الحسن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٣، بيروت ١٩٦٥.

١٣ ـ المقدسي، شمس الدين البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦.

١٤ ـ المقريزي، تقي الدين أبو العباس، السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول ـ القسم الأول القاهرة ١٩٥٦.

١٥ ـ المقريزي، تقي الدين أبو العباس، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق ١٢٧٠ هـ.

١٦ ـ النويري ، شهاب الدين أحمد ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٢٣ .
١٧ ـ حسن ، إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤ .
١٨ ـ حسن ، زكي ، الفن الإسلامي في مصر ، جـ١ ، القاهرة ١٩٣٥ .
١٩ ـ خسرو ، ناصري ، سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠ .
٢٠ ـ رمزي ، محمد ، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ .
٢١ ـ رونسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرني ، بيروت ١٩٦٨ .
٢٢ ـ ريسلر ، جاك ، الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون (بدون تاريخ).
٢٣ ـ زامباور ، ج ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة زكي حسن وحسن محمود ، جـ١ ، القاهرة ١٩٥١ .
٢٤ ـ سرور ، محمد جمال الدين ، الدولة الفاطمية في مصر ، القاهرة ١٩٦٦ .
٢٥ ـ شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٣ .
٢٦ ـ عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٦٣ .
٢٧ ـ كاشف ، سيدة اسماعيل ، أحمد بن طولون ، القاهرة ١٩٦٥
٢٨ ـ كاشف ، سيدة اسماعيل ، مصر في فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٧٠ .
٢٩ ـ متز ، آدم ، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ .
٣٠ ـ مؤنس ، حسين الحضارة ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨ .

ب ـ المراجع الأجنبية

Hassan, Zaky, Les Tulunides, étude de l'Egypte Musulmane à la fin du IX Siècle, Paris 1933.

— **Stanley,** Lane — Poole, History of Egypt in the Middle Ages.London 1900.

— **Wiet,** Gaston, L'Egypte Arabe, (Histoire de la Nation Egyptienne, V. IV), Paris 1937.